المسكوت عنه في كتاب الكامل لأبي العباس المبرد

اللهم أعنا وتقبل منا وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله كما صليت وسلمت وباركت على أبويه إبراهيم وإسماعيل في العالمين إنك حميد مجيد».

الكامل في تاريخ البلاغة :

فإن بيان المسكوت عنه في كتاب الكامل يوجب أن أشير إلى أشياء تتعلق بنشأة البلاغة ؛ لأن المسكوت عنه يتعلق كثير منه بهذه النشأة ، وبيان المسكوت عنه تصحيح «لوضع كتاب الكامل في تاريخ نشأة هذا العلم» ، ثم إن كثيراً من المسكوت عنه مما يجب أن يدخل في علم البلاغة نفسه . وليس في تاريخه ، ودخوله في هذا العلم يملأ فراغًا ، ويزداد به العلم حسنًا وعطاء واتساعًا . والذين كتبوا في تاريخ البلاغة وهم قلة قليلة من أماثلنا كانت عنايتهم بالمؤلفات هي الغالبة ، فيتكلمون عن كتاب البديع لابن المعتز ونقد الشعر لقدامة وهكذا ، وهذا جيد وضروري . ومن الجيد والضروري أيضًا العناية بتاريخ نشأة الفنون البلاغية . ومتى نشأ هذا الفن وعلى يد من ؟ وما هو السياق الذي أثار نشأته ؟ وكيف كان ساعة ولد ؟ وما هي قصته بعد ذلك في الكتب ؟ ثم أيضًا من تاريخ العلم أن نتعرف على الكتب والدراسات التي بشرت به قبل أن يوجد ، وهكذا تجد التاريخ

يشمل أمورًا كثيرة . والذي يكتب في باب يُذْكَر ويُشْكر ، ولا نقف عنده ونقول : لماذا ترك كذا وكذا ، وإنما علينا أن نبدأ نحن من حيث انتهى غيرنا . ويكون عملنا قائمًا على طريقة المعاقبة أو التعاقب الذي تحدث عنه العالم الملهم حمد بن إبراهيم بن سليمان الخطابي وأراد أن يبدأ الثاني من حيث انتهى الأول . وليس من حيث بدأ الأول .

وقد أجمع أهل العلم على أن عبد القاهر الجرجاني هو مؤسس علم البلاغة ، والواقع التاريخي يقول ذلك ، وليس لأحد أن يخالف فيه ؛ لأن الذي انتهى إليه هذا العلم بعد عبد القاهر كان غير الذي كان عليه هذا العلم قبله . لقد تساندت جهود كثيرة وتعاونت وتضامت في تأسيس علم النحو ، وتساندت وتضامت وتعاونت جهود كثيرة في تأسيس علم الفقه ، ثم كان أن فتح الله على هذا الجرجاني العريق وأسس وحده علمًا من أجلِّ وأشرف علوم العربية ، وهذا مما لا منازعة فيه ، وهذا يجعل عملنا في دراسة نشأة هذا العلم أيسر ؛ لأننا نبحث عن الذي كان بين يدي هذا الرجل وحده ، وهو ينهض بأجلِّ ما ينهض به بشر بعد الأنبياء وهو صناعة علم شريف .

أمران لابد من طول النظر فيهما : الأمر الأول : حصيلة ما كان بين يديه من كلام علماء هذا الشأن . والثاني : قدره هو وطبعه هو الذي أعانه على أن يستخرج من كلام السلف ما استخرج . وهذا الأمر الثاني كانت له آثاره الواضحة في كتابة عبد القاهر . ترى ذلك في حديثه المستفيض عن مبنى الطِّباع وموضع الجبلة . واستخراج كثير من أصول هذا العلم من هذه الطباع وهذه الجبلة ، وكأنه يربط أصول هذا العلم بهذه الطباع ويقول لنا إنها

ستتغير إذا تغيرت هذه الطباع وتغيرت هذه الجبلات ، وهذا لن يكون ؛ لأنها من سنن الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، فالإنسان منذ أن خلق يُحبُّ الحَسَنَ ويكره القبح .

هناك نصان مهمان لا نستطيع أن نصحح فهم نشأة هذا العلم إلا بوضعهما أمام عيون أهل العلم . النص الأول يصف فيه عبد القاهر كلام سلفه من علماء الأمة الذين تكلموا في هذا العلم ، وأن حديثهم عن المراد بالبلاغة والفصاحة كان حديثًا غامضًا جدًّا ، وكذلك حديثهم في بيان حسن ما استحسنوا من الشعر وغيره . ونحن نعلم أن الحديث عن المراد بالبلاغة كان أكثره يقال في مسألة الإعجاز ، أما الحديث عن وصف الحسن فقد كان يقال في الكلام كله . يذكر عبد القاهر أن علماءنا الذين تكلموا في هذا أو ذاك كان كلامهم شديد الغموض لا يفهمه إلا من كان في طبقتهم ، وكأنهم كانوا يتكلمون بلغة خاصة بهم ، وقد بلغ إحساسه بهذا المعنى غايته حين قال : « وكأنه كان بسلا حراما أن يفهم عنهم غيرهم » وفي كل باب من أبواب العلم يكرر الشكوى من غموض الكلام فيه . وقد افتتح عبد القاهر كلامه في أبواب العلم في كتاب الدلائل بهذا النص قال رحمه الله : « ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة ، وفي بيان المغزى من هذه العبارات وتفسير المراد بها ، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء ، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيئ ليطلب وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج ، وكما يفتح لك الطريق إلى المطلوب لتسلكه » انتهى كلامه . وهذا هو التراث البلاغي الذي كان بين يدي عبد القاهر ، وهو حصيلة أربعة قرون . ولك أن تقول هذا هو علم

البلاغة إلى زمن عبد القاهر ، وهذه هي الرموز والإشارات التي ما زال عبد القاهر يحاورها ويداورها حتى تركها لنا في كتابيه الجليلين « أسرار البلاغة » و« دلائل الإعجاز » . والمهم أن نراجع كلامه في هذا التراث أو في هذه البلاغة ؛ لأن هناك فرقًا بين كلام هو كالرمز والإيماء ، وكلام هو إشارة إلى مكان الخبيئ ليطلب ، فنحن أمام الرمز والإيماء نحاول فهم هذا الرمز وهذا الإيماء ، وهذا شيء والقول بأن هنا خبيئًا عليك أن تستخرجه شيء آخر ؛ لأنك إذا استخرجته لم يعد غامضًا ولا رمزًا ولا إشارة . وقد عنيت بهذا منذ قراءاتي الأولى للشيخ ووجدت أكثر كلام العلماء من نوع الإشارة إلى مكان الخبيئ ؛ لأن الذي يقول لي : هذا جيد حسن أو هذا أجود وأحسن ، يقول لي ابحث فيه وستجد الحسن والجودة أو الأحسن والأجود ، وهذا الحسن وهذا الأحسن هو الخبيئ الذي عليك أن تستخرجه . وكثير من كلام أبي العباس من هذا الباب . ولو قال قائل إن كل عمل عبد القاهر هو شرح للرموز والإشارات ، وبحث عن الخبيئ ليخرج لم يكن مخطئًا ، والشارح الحق هو الذي يضيف إلى المشروح إضافات لا تخرجه من بابه . والوقوف عند بيان مراد المصنف خطوة ، وإضافة ما يثيره بيانه في نفوسنا خطوة ثانية وهي التي يتحرك بها العلم إلى الأمام . والوقوف عند الخطوة الأولى التي هي بيان مراد المصنف عمل جيد ، ولكنه داخل في باب « محلك سر » .

وإذا كانت نشأة البلاغة في خطواتها الأوسع في عمل عبد القاهر مؤسسة على شرح المعجم البلاغي الغامض ، كان إهمال هذا المعجم والسكوت عن مصادره إهمالاً وسكوتًا عن ما لا يجوز إهماله والسكوت عنه ، وكان أيضًا

إغماضًا لعامل أساسي في تاريخ العلم . وتستطيع أن تستخرج من كتاب الكامل جزءًا كبيرًا من هذا المعجم الغامض ، وتستطيع أن تقول إن أبا العباس كان يخاطب بهذا من هم في طبقته ، وكأنه كان بسلا حرامًا أن يفهم عنه غيرهم ، وقل مثل ذلك في كتاب البيان والتبيين ، ولكن البيان والتبيين أخذ بعض حقه في تاريخ العلم ؛ لأن الجاحظ كان يلفت عيون الدارسين للشعر أكثر مما كان يلفتهم أبو العباس الذي كان أديبًا غلب عليه النحو فعرف به ، وكان الجاحظ أديبًا لم يغلب عليه النحو فلم يعرف به .

رموز عبد القاهر وشروح التلخيص

وقبل أن أدع هذا النص وما يتعلق به أشير إلى حقيقة غائبة عن كثير من الناس ، وهي أننا ألفنا أن نمدح بلاغة عبد القاهر وأن نعيب بلاغة السكاكي وشراح التلخيص ، وغفلنا عن حقيقة لا شك فيها وهي أن البلاغة بدأت بالرموز والإشارات ، ثم صير عبد القاهر هذه الرموز وهذه الإشارات أصولاً علمية واضحة ، ثم جاء السكاكي ووضع هذه الأصول في معاقد كما قال ، ثم جاء الخطيب ولخص هذه الأصول ذاتها في متن التلخيص ، ثم جاء الشراح وشرحوها في شروح التلخيص ، ثم جاء أصحاب الحواشي وعلقوا على هذه الشروح كالسيد الشريف ، ثم جاء أصحاب التقارير وتعقبوا هذه الحواشي كالعلامة السيالكوتي . وهكذا تقلبت هذه البلاغة وأصلها الرموز والإشارات في هذه المراحل ، والحقيقة هي التي ترى فيها التقديم يفيد العناية عند عبد القاهر الذي هو أولهم ، وعند شراح التلخيص والشيخ الشربيني الذي هو آخرهم . وقل مثل ذلك في التعريف والتنكير والفصل

والوصل والإيجاز والإطناب وكل أبواب المجاز . الأصل العلمي واحد وطريقة التناول مختلفة ، وليس عندنا بلاغة يمكن أن تسمى « بلاغة السكاكي » وأخرى تُسَمَّى « بلاغة الزمخشري » وثالثة « بلاغة الخطيب » لأن البلاغة واحدة وأساليب الإبانة عنها مختلفة ، ولاشك أن هناك اختلافًا بين هذه الكتب التي تعالج علمًا واحدًا كاختلاف كتب علماء الشافعية وعلماء المالكية والنحاة إلى آخره ، والفقه واحد ، والنحو واحد ، والبلاغة واحدة .

النص الثاني الذي هو ضرورة في معرفة رسالة البلاغة ،ومواطن وجودها ، وكيف تستثمر ؟ وغيبة هذا النص تُفضي إلى الاضطراب في التعامل مع هذا العلم ، وفي الكتابة عنه ، وفي عرضه لأجيال الأمة . هذا النص تراه كثيراً في كلام عبد القاهر ، وتراه غالبًا يذكره في رؤوس الأبواب ، ويدور حول التذكير الدائم بأن البلاغة لا تهدينا إلى معرفة الحسن والأحسن ، وإنما يهدينا إلى ذلك الطبع ، وليس في علومنا علم إذا حفظناه أعاننا على معرفة الفاضل والأفضل ، وليس أمامنا في هذا إلا أن تَلْتَقِي طبائعنا مع الشعر وجهًا لوجه من غير أي وسيط بيننا وبينه . وليس هذا كلام عبد القاهر وحده ، وإنما هو أيضًا كلام الباقلاني الذي طارد وجود أي علم بيننا وبين القرآن لندرك به الإعجاز ، وأكد أنه لا يدرك هذا الإعجاز إلا الطبع ، وكذا قال السكاكي . والمهم أن هذا الطبع لا يجوز لنا الغفلة عن تثقيفه وتقويمه ودوام تغذيته ، وهو لا يغذي إلا بشيء واحد هو حر الكلام وفصيحه وبيِّنه ، وطول المراجعة فيه . وبعد ما يقول الطبع هذا حسن وهذا أحسن تتقدم البلاغة ولها رسالة واحدة لا تتعداها وهي التغلغل في الشعر الحسن ؛ لبيان واستخراج الشيء الذي كان به حسنًا ، والتغلغل في الشعر الذي كان أحسن ؛ لاستخراج

الشيء الذي به كان أحسن . ويلاحظ أن الطبع الذي تفرد بالقول بأن هذا حسن وهذا أحسن هو ذاته أكبر معين للبلاغة بعد حضورها ، وهو الذي به تتغلغل البلاغة في مطاوي ومخابئ البناء اللغوي لتستخرج الخبيئ الذي به كان الأحسن أحسن . فالطبع أولا وهو وحده ، والطبع ثانيًا وهو المرافق للبلاغة والمعين لها على أداء رسالتها ،وإذا افتقدناه في الخطوة الأولى توقفنا ، وإذا افتقدناه في الخطوة الثانية ضللنا . ذكر عبد القاهر ذلك صراحة وضِمْنًا في أول باب التقديم ، والحذف ، والفصل والوصل ، وفروق الخبر . ومن ذلك قوله في أول باب التقديم : « لا تزالُ ترى شعرًا يَرُوقك مسمعُه ، ويلطُفُ لديك موقعُه ، وثم تنظرُ فتجدُ سبب أن راقك ولَطُفَ عندك أن قدم فيه شيء ، وحوّل اللفظ عن مكان إلى مكان » انتهى كلام عبد القاهر ، وهو قاطع في أن الشعر يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه والبلاغة بمعزل عنك ، وليس بينك وبين الشعر أي وسيط .

مواطن التجويد في الشعر هي الفنون البلاغية

ولابد من أن نذكر أن مواطن الحسن في الشعر هي ما نسميها « فنونًا بلاغية » كاللفظ الذي حوّل من مكان إلى مكان ، وكالتنكير والتعريف بالألف واللام ، ومجيء الواو وغيابها ، وكل هذه الفنون رواكد وسواكن في الشعر .

وإذا وجدت فنا بلاغيًا واحدا ليس من سواكن الشعر فلا عليك إذا رميته في البحر ، ولهذا يحرص أهل العلم على كل هذه الفنون ؛ لأنها هي ماهيات الشعر والكلام العالي .

وكل كتاب ذكر المستحسن من الشعر والبيان ، وعقب على حسنه بلغة

غامضة في الزمن قبل عبد القاهر هو من الكتب التي لا يجوز السكوت عنها في دراسة تاريخ هذا العلم ودراسة حاضره أيضًا ؛ لأن كل دراسة واعية للتاريخ هي عطاء للحاضر ، والتاريخ هو المصباح السحري الذي ينير المستقبل .

ما يدور حوله كتاب الكامل

والآن أبدأ بعد هذا التقديم اللازم في قراءة مقدمة كتاب «الكامل» لأن الكتب أجسام والمقدمات رؤوس هذه الأجسام ، وفيها هواجسها وخواطرها وآمالها وطموحاتها . قال أبو العباس : «هذا كتاب ألفناه يجمع ضروبًا من الآداب ما بين كلام منثور ، وشعر مرصوف ، ومثل سائر ، وموعظة بالغة ، واختيار من خطبة شريفة ، ورسالة بليغة ، والنية فيها أن نفسر كل ما وقع في هذا الكتاب من كلام غريب أو معنى مستغلق ، وأن نشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحًا شافيًا حتى يكون هذا الكتاب بنفسه مكتفيًا ، وعن أن يرجع إلى أحد في تفسيره مستغنيًا ، وبالله التوفيق والحول والقوة» انتهى كلامه . وهذا يعني أن أبا العباس يُعد كتابًا مكتفيًا بنفسه للذائقة البيانية التي لا يجوز أن تغيب عن درس النحو والبلاغة واللغة ، بل والفقه والتفسير إلى آخره . وهذه الذائقة كما قدمنا لا غذاء لها إلا هذا البيان العالي من الأدب والحكم والأمثال إلى آخر ما ذكر ، ولا يضمن لها البقاء والسداد والعافية إلا هذا البيان العالي . وأن الإعراب واللغة تراهما في هذا الكتاب وهما يسبحان في هذه الآداب العالية . وأن يتحولا ليس إلى علم يحفظ فحسب ، وإنما إلى بيان يذاق وتتلقاه العقول والقلوب بالغبطة والأريحية ، وهذا هو الطريق الذي قدم به علماؤنا لغتنا إلى الأجيال القادمة ، ولا بد من ملاحظة

أن هذا الضرب من التأليف لا ينتج تقويم اللسان فحسب ، وإن كان هذا مهمًّا جدًّا ، وإنما ينقل إلى الجيل قيمًا وأخلاقًا وتاريخًا وحضارة ، وكل ما في اللغة من مضامين إنسانيةن عالية تعبر عنها كلمات مختصرة مثل الآداب والحكم والموعظة البليغة والخطبة الشريفة . فرق بين كُتِبِ تُجَرِّدُ اللغةَ من هذه المضامين التي تربي النفوس وتكوّن جيلاً يَعْقِلُ حضارته وثقافته وتاريخه ، وتهتم فقط بالقواعد التي تُجَرِّدُ اللغة من كل هذا ، وبين كتب تحمل كل هذا التراث الإنساني في شعرها ونثرها والمختار من آدابها وحكمتها . وأعتقد أن هذا هو سر نجاحهم في تربية الأجيال ، وسر تخلفنا في هذا ؛ لأننا عُنينا بعلوم العربية أكثر من عنايتنا بالعربية نفسها ، وسرنا على عكس ما ساروا عليه ؛ لأن علم العربية كان في «الكامل» تابعًا للعربية نفسها ، وحتى لا يحتاج قارئ الآداب والحكم والأمثال إلى من يفسر له كلمة غريبة أو إعرابًا مشكلاً . فرق بين من يعلم اللغة على أنها نحو وبلاغة ، ومن يعلم اللغة على أنها تاريخ وحضارة وثقافة وتجربة أجيال خلت ، فيها صوابهم وخطؤهم ، وفيها آدابهم وقيمهم . ولم نعرف أجيالاً تلقَّت هذه العربية الشريفة بالشكوى والتبرم إلا أجيالنا لَمَّا قدمَّناها لهم في لغة خشنة وقواعد قطعناها عن أغصانها التي أثمرتها .

قلت إن كتاب «الكامل» زاخر بأمرين لهما شأن أيّ شأن في تاريخ البلاغة : الأول : الشعر الحسن المختار الذي هو أول خطوة في الدرس البلاغي ، وهو منه بمثابة البسملة في القراءة . والثاني : كلام أبي العباس في حُسْن الحسن ، وهو من صلب المعجم الغامض الذي هو كالرمز والإيماء كما قال عبد القاهر . وهذان يجعلان السكوت عن هذا الكتاب في التعريف

بجذور الدراسة البلاغية سكوتًا لا يحسن السكوت عليه . وشيء آخر في كتاب «الكامل» وهو أن أبا العباس كانت ذاكرته كأنها مدونة جليلة لشعر العربية، فكان إذا ذكر بيتًا في معنى توافت عليه أبيات كثيرة في هذا المعنى. وهذه إحدى ضوال الدارس البلاغي ؛ لأنه ليس في البلاغة أكرم من أن يكون بين يديك معنى واحد تواترت عليه الصور ، وكل صورة هي صنعة شاعر ، وتحليل الصور والمقارنة بينها هو تحليل لصنعة الشعر . ولو قلت إن البلاغة ليست إلا دراسة لصنعة صاحب البيان في بيانه ، لم تكن مخطئًا . وكان عبد القاهر صاحب هذا العلم شديد الحفاوة بهذا الباب ، ويرى أن الذين جهلوه قد جهلوا البلاغة كلها ، وعقد له صفحات كلها أبيات من الشعر حول معان متشابهة ، وأَغْرَى ببحث ما بينها من تقارب وتباعد . ولو رجعنا إلى كتاب «الكامل» وأخرجنا منه هذه الأبواب ودرسناها بابًا بابًا دراسة يقظة ، لكان لنا من كتاب «الكامل» جملة من الكتب هي من نفس مصادر الدراسة البلاغية ، ولست في حاجة إلى أن أنبه إلى أن هذا من المسكوت عنه .

علوم العرب في شعرها

ثم إن أبا العباس يفتح في الشعر بابًا آخر هو من أهم أبواب المسكوت عنه ، وإن كانت لا تدخل في علم البلاغة ، وإنما هو باب علم العرب الذي دلوا عليه في شعرهم . وشعرهم هذا هو العلم الذي لم يكن لهم علم سواه كما قال سيدنا عمر رضي الله عنه . وعجيب جدًّا أننا تركنا هذا الباب مغلقًا مع أن سيدنا عمر نبه إليه ، وفتح أبو العباس بابه . إذا ذكر أبو العباس بيتًا من الشعر فيه ذكر ريح من الرياح أتبعه بغيره ، ثم أخذ يستخرج من الشعر

أنواع الرياح وجهات هبوبها وأزمنة هبوبها ، وأن منها المبشرات بالمطر والخصب ، ومنها المنذرات بالجفاف والقحط ، وما يتبع ذلك من أنواع الحساب وأن منها كذا ومنها كذا ، حتى يدخل بك في علم الأنواء وعقائد العرب في الأنواء ، وحتى تَرَاك أمام معلومات لا يجوز أن تترك هكذا للصدفة ، وإنما تُستقصى في الشعر وتُصنف وتُقدم من حيث هي باب من أبواب علم هذه الأمة في جاهليتها . وقل مثل ذلك في الخيل وما تمدح به وما تعاب به ، وأوصافها حتى إنك لترى نفسك أمام معلومات عجيبة عن حوافر الخيل ، والفرق بين حوافر الجياد وحوافر غير الجياد . وقل مثل ذلك في الإبل وأوصافها وعراقتها إلى آخره . وقديمًا كتب الزمخشري كتاب «الجبال والأمكنة» وهو ليس في الجغرافيا ، وإنما هو في الأدب ، وهذا يبدو غريبًا وليس غريبًا ؛ لأنه ذكر الجبال التي كثر ذكرها في الشعر ، وكأنه رحمه الله كان كأنه يبشر بما يمكن أن يسمى «الجغرافيا الأدبية» التي قلما تجدها إلا عند أمة الشعر ، التي هي أيضًا أمة البداوة .

المهم جودة الكلام وليس المتكلم :

كان علماؤنا يستحسنون القول لحسنه هو ، مع صرف النظر عن قائله ، ويستهجنون القول لهجنة فيه ، مع صرف النظر عن قائله ؛ ولذلك كانوا يأخذون الحسن ممن يرضونه وممن لا يرضونه ، فأخذوا من حكمة الفرس والهنود واليونان ، كما أخذ المعتزلة من الأشاعرة ، وأخذ الأشاعرة من المعتزلة ، وأخذ أهل السنة من الشيعة ، وأخذ الشيعة من أهل السنة . والأصل في كل ذلك أن الحكمة ضالة المؤمن ، أنى وجدها أخذها . وقد بالغ الناس في هذا المعنى ، وقالوا : خذوا الحكمة من أفواه المجانين .

والكتب مشحونة بالكلام الجيد الصادر عن غير الجيدين ؛ ولهذا لا تجد غرابة إذا وجدت في كتاب «الكامل» شعرًا كثيرًا وأدبًا كثيرًا نقله أبو العباس عن أمثال عمران بن حطان وهو من رؤوس الخوارج، ومثله نافع بن الأزرق، وقطريّ بن الفجاءة وغيرهم . ولم يكن يتوقع أن يأتي زمان يلام فيه الكاتب إذا ذكر «الخوارج» وإنما كان يتوقع أن يطلب من القارئ مزيدًا من أخبارهم ؛ لأن هذا المزيد من حق العلم والتاريخ ، فكان يعتذر عن أنه لم يشبع الكلام في أخبارهم ويقول : «وأخبار الخوارج كثيرة وطويلة ، وليس كتابنا مفردًا لهم ، لكنا نذكر من أمورهم ما فيه معنى وآداب ، وشعر مستطرف ، وكلام من خطبة طويلة معروفة» وكان علماؤنا يذكرون من آداب الأمم ما فيه معنى وأدب وشعر مستطرف ، وقد ذكر عبد القاهر الجرجاني أبياتًا جيدة لأحد الخوارج في موقف نبيل لهذا الخارجي ، وكان قد أسره الحجاج ؛ لأنه كان يقاتله ، فلما قُدِّم مع الأسرى لقتله ، نظر إليه الحجاج وذكر يدًا له كانت على الحجاج فعفا عنه ، ثم رجع إلى قومه ، وبعد مدة أراد قطري بن الفجاءة ، وكان من شياطين الخوارج ، أن يعاود قتال الحجاج ، فندب هذا الرجل للخروج إلى قتال الحجاج ، فرفض الرجل ، وقال أبياتًا جيدة أكد فيها موقفًا جيدًا ، والأبيات هي :

أأقاتلُ الحجاجَ عن سلطانه ... بيدٍ تُقِرُّ بأنها مولاتهُ ؟
ماذا أقول إذا وَقَفْتُ إزاءَه ... في الصَّفِّ واحتجت له فعلاته ؟
وتحدَّثَ الأقوامُ أن صَنَائعا ... غُرست لديّ فَحَنَظَلَتْ نَخَلاتُه ؟

وقد وقف عبد القاهر عند بلاغة وبراعة قوله : «واحتجت له فعلاته» وذكر أنه معنى لم يقل فيه أحد أفضل منه .

وهـذا هـو المـوقف العلمي والعقلي الصحيح . وإذا علـت أصـوات مـن لا يعلم ، فلا يجوز أن تسكت أصوات من يعلم ؛ لأن هذا ضارّ جـدًّا ويـؤدي إلى مفسدة كبيرة .

ومن لطيف ذكر الخوارج أن سيدنا معاوية كاتب وحي رسول الله ﷺ لمـا علم بخروج الخوارج لقتاله طلب من سيدنا الحسن بن علـيّ كـرم الله وجهـه أن يتولى قتالهم ، فقال لـه الحسـن : « والله لقـد كَفَفْـتُ عنـك ؛ لحقـن دمـاء المسلمين ، وما أحسَبُ أن ذلك يعني أن أقاتل عنك قومًا أنـت أولى بالقتـال منهمـ» . وقـد نشـرت المرحومـة عائشـة عبـد الرحمـن « مسـائـل نـافـع ابن الأزرق » التي سأل فيها سيدنا عبد الله بن عبـاس . ونـافع هـذا رأس فرقـة مـن الخـوارج تسـمى « الأزارقـة » نسـبة إليـه . وهنـاك فرقـة أخـرى تسـمى « الصفرية » نسبة إلى صُفرة ألوانهم من كثرة العبـادة . وفرقـة أخـرى تسـمى « الإباضية » وهي أقرب الفرق إلى فكر الجماعة . هكـذا قـال أبـو العبـاس ، وهم أهل « عمان » وكثير منهم في شمال أفريقيا ، وهم جزء من نسيج الأمة ، يعيشون مع الأمة في سلام ومحبة ، وعلى السادة الذين لا يعرفون التاريخ أن يسـكتوا عـن مـا لا يعلمـون ، ولـو سـكت مـن لا يعلـم لاسـتراح النـاس . والغريـب أنـني أسمـع الـذين لا يحسـنون نطـق أسمـاء الرجـال ، يقومـون ويقعدون بالهجوم على بعض الفرق ، وقد انتهى زمانهم وتغيرت الأحوال ويا بُعد ما بين خوارج زماننا وخوارج عبد الله بن إباض . رحـم الله أبـا العبـاس ، ورحم الله عبد القاهر ، ورحم الله عائشة عبد الرحمن ، وألحقنـا بالصـالحين من علمائنا كرامة نفس وقرة عين .

خطأ تعليم اللغة وهى مُفْرَغَةٌ من مضامينها

أشرت إلى أن أبا العباس لم يكن يعلّم الذين يكتب لهم اللغة والنحو والشعر والآداب والحكم فحسب ، وإنما كان يجعل ذلك سبيلاً إلى إعداد أجيال تحفظ ثقافة الأمة وتاريخها ، ويكوّن هذه الأجيال من خلال التجارب الإنسانية الحية التي أودعتها الأمة في آدابها وحكمتها وبيانها المنثور وشعرها المرصوف ، والكل يعلم سلطان البيان على النفس الإنسانية ، وقد أفرد ابن رشيق سلطان الشعر على النفس الإنسانية بالحديث ، وكلنا يحفظ القول المنسوب إلى سيدنا معاوية وأنه حدثته نفسه بالفرار حين حمي الوطيس ، وما أمسكه إلا قول الشاعر :

وقَوْلِي كُلَّما جَشَأَتْ وجَاشَتْ مكانَكِ تُحْمَدِي أو تَسْتَرِيحي

قلت هذا لأذكّر بأثر الشعر المختار والخطب الشريفة والرسالة البليغة على تربية الجيل وإعداده ، وأن عرضنا للغة في دراسة النحو والبلاغة ، وإبعاد كل هذا العطاء الروحي الذي لا يقدمه للجيل شيء كمال يقدمه الشعر والبيان . أقول إبعاد هذا من الأخطاء الفاحدة ، ويقيني أن كل المنهج الذي يدرسه أبناؤنا في مدارسنا وجامعاتنا ليس فيه مادة تَدْخُل في تكوين الإنسان وتربيته وإعداده ، كما تَدْخُل مادة اللغة العربية على الوجه الذي ذكره أبو العباس . وإعداد الجيل ليس نافلة ، والذين يكتبون للجيل ليسوا متفضلين ، وإنما هو واجب ؛ لأنهم حراس الأرض والعرض والدين والتاريخ ، وأي تهاون في هذا الإعداد إنما هو تهاون في حراسة الأرض والعرض والدين والتاريخ ، وهذا مما لا يجوز أن يغيب عن كل من يؤدي درسًا أو يكتب كتابًا أو يسوس أمرًا ، كما لا يجوز أن يغيب خطر أفعى صهيون

التي على حدودنا الشرقية ، وأن التهاون في إعداد من يواجهها هو بمثابة الخيانة العظمى ، وأخشى أن يكون خراب التعليم داخلاً في هذا الباب من حيث ندري أو لا ندري هما سواء ؛ لأن مثل هذا يقال فيه : إ ن كنت لا تدري فتلك مصيبة ، أو كُنْتَ تدري فالمصيبة أعظم . ويكفي أن تزور المدرسة التي تعلمت فيها ، وتقارن حالها اليوم بحالها يوم كنت فيها طالبًا ، وليس هناك حكم على التعليم أصدق من هذا الحكم . وليس هناك حكم على أي نظام سياسي أصدق من هذا .

التشبيه في كتاب الكامل :

الآن أبدأ باب «التشبيه» وأول ما أقول فيه هو توافق شواهده مع بقية شعر الكتاب ؛ لأن كل هذه الشواهد فيها بعد كل الذي ذكرته شيء آخر ، وهو أنك يغمرك الإحساس وأنت تراجعها بأن أبا العباس لا يعلمك هذه الشواهد بكل ما تحمله من معان وقيم ، وإنما يُسكن كل هذا في ضمير نفسك ، والبيان إذا سكن في ضمير النفس حرك فيها طاقاتها البيانية الهاجعة فيها والداخلة في قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ (الرحمن:٤) لأنه ليس المراد بيان لغة معينة ، وإنما هيّأه سبحانه بقدرته لأن يكون ذا بيان ، ومعاني الشعر تولد نظائرها في النفس ، ومباني الشعر التي هي طرائق الإبانة تلهم النفس وتأخذ بيدها على مدرجة القدرة على الإبانة . وكذلك يقال في التشبيه ترى كثرة هذه الشواهد تبعث في النفس رغبة في أن تزيد المعاني بيانًا ، فتلحق المعنى المجرد بالصورة التي هي أوضح وأبين ، وهكذا تجد في هذا الكتاب جانبًا آخر وهو أنه لا يعلمنا العلم لنحصّله ونعلمه ونتكلم به ، وإنما يهيئنا أيضًا لإنتاجه . وفرق بين من يحصّل العلم ومن يتهيأ لإنتاج العلم ، وهذا

الثاني هو طريق الإضافة ، وطريق صناعة إنسان ينتج معرفة ، ونعمّا هو ، وهذا من أنفس النفيس المسكوت عنه . فرقٌ بين من يعيش حارسًا يحرس بناء المعرفة ، وبين من يضع لبنة في بناء المعرفة . أوائلنا علموا أجيالهم كيف يضعون اللبنة ، ونحن نعلم أجيالنا كيف يحرسون اللبنة .

لم أقرأ في الكتب التي كُتبت قبل أبي العباس ، ولا في الكتب التي كتبت في زمان أبي العباس صورًا للتشبيه أكثر من الصور التي في كتاب «الكامل» وأكاد أقول : ولا في الكتب التي كُتبت بعده ؛ لأنها وإن كانت زاخرة بالدراسة ، فإن كتاب «الكامل» يظل أكثر زخرًا منها بالشواهد ، والذي في باب «التشبيه» ليس كل ما في كتاب «الكامل» من التشبيه ؛ لأنه وهو يختار الشعر المستحسن في غير باب التشبيه جاء كثير منه من صور التشبيه ؛ لأنه أكثر كلام العرب ، وما دُمتَ في كلام العرب فأنت مع التشبيه ، أردته أم لم تُرده .

يقول أبو العباس في أول باب «التشبيه» : «هذا باب طريف ، نصل به هذا الباب الجامع الذي ذكرناه ، وهو بعض ما مرّ للعرب من التشبيه المصيب والمحدثين بعدهم» انتهى كلامه . وهذا يعني أن هذا الباب الذي هو أوسع ما قرأنا وُصْلةٌ يصل بها أبوالعباس هذا الباب الجامع ، ولهذا قلت إنه أوسع أبواب التشبيه في الكتب قبله وبعده ، ولهذا أيضًا قلت إن أبا العباس بهذه السعة يطبع هذا الطريق البياني في نفوسنا ويزرعه فيها ؛ لأن هذا ليس طريق من يعلّم فقط ، وإنما هو طريق من يجعل المعرفة وسيلة تغيير في النفس وتثقيف للطبع ، ويجعلها أيضًا دربة ومرانا .

المبرد صنو الجاحظ

كان أبو العباس صنو الجاحظ ، وكان يحدثنا بما حدثه به الجاحظ ، وكان «الكامل» صنوًا «للبيان والتبيين» كلاهما يروي جيد الشعر ، ثم ينزع الجاحظ نحو الكتابة ، ويكون له مذهب في البيان ومدرسة ، وينزع أبو العباس نحو اللغة والإعراب ويصير أحدَ شيوخ المذهب البصري . ويظهر عبد القاهر بعد زمن ، فيكثر من ذكر الجاحظ في الدرس البلاغي ، ويكاد يُغفل أبا العباس ، ويُوسّع عبد القاهر مكان ومكانة الجاحظ في تاريخ البلاغة ، ويظل أبو العباس مسكوتًا عنه ، ويتسع ذكر كتاب «البيان والتبيين» ويضيق ذكر صنوه الذي هو «الكامل» ، وليس هذا غبنا لأبي العباس ولكتاب «الكامل» وإنما هوغبن للبلاغة ولتاريخها .

حفاوة المبرد بامرئ القيس

بدأ أبو العباس الكلام في «التشبيه» ببيت امرئ القيس المشهور :

كأنَّ قلوبَ الطيرِ رَطْبًا ويابسًا لدي وَكَرِها العنابُ والحشفُ البالي

وكان أبو العباس شديد الحفاوة بامرئ القيس ، وكثيرًا ما يبدأ بشعره وينقل إلينا وصف أهل الأدب له بأنه «سيد الشعراء» وكل هذا حق ولا يجوز غيره ، ومن يعرفون الشعر لا يقولون إلا هذا ، ولو بُعث كل شعراء العربية وسُئلوا سؤالاً واحدًا : من سيدكم ؟ لقالوا : امرؤ القيس . ويقول أبو العباس في هذا البيت : إن الناس أجمعوا على حسنه ؛ لأنه شبّه شيئًا في حالين مختلفين بشيئين . ولحظ أبو العاس أن تأليف المعاني في

البيت وترتيبها جاء على طريقة العرب الفصحاء الذين لهم فطنة وفيهم لقانة ؛ لأن الشعر لم يقرن العناب بالرطب . والحشف البالي باليابس ، وإنما ترك ذلك لذكاء السامع .

طرائق الفصحاء وطرائق المولدين

وكان هؤلاء الفصحاء يَرَوْنَ أن ما زاد على الإفهام يُعدّ عِيًّا وتكرارًا . قال أبو العباس : « العربي الفصيح اللقن الفطن يرمي بالقول مفهوما ويرى ما بعد ذلك من التكرار عيّا » وهذا العبارة قريبة جدًّا من عبارة بشار بن برد لما قال :

بكّرا صاحبيّ قبل الهَجِيرِ إنَّ ذَاكَ النجاحَ في التبكير

فقيل له : لماذا لم تقل : بكرا فالنجاح في التبكير ؟ فقال : إنما بنيتها أعرابية ، ولو قلتُ : بكرا فالنجاح في التبكير ، لكان أشبه بكلام المولّدين . والأعرابية في كلام بشار هي التي قالها أبو العباس : « العربي الفصيح اللقن الفطن يرمي بالقول مفهومًا ، ويرى ما بعد ذلك تكرارًا وعيّا » . والتكرار هو الأشبه بكلام المولدين في عبارة بشار ، والعربي الفطن اللقن يجعل بعض ما ينطق به منبهةً إلى معنى يريده ولا ينطق به ، فقول بشار : « إن ذاك النجاح » منبهة إلى « بكرا » ، وعلمُ السامع بأن « العناب » هو الأشبه « بالرطب » و« الحشف البالي » أشبه « باليابس » أغنى الفصيح اللقن عن أن يقول : الرطب عناب ، واليابس حشف بالٍ . ورأيت هذا الطريق يكثر في كلام رسول الله ﷺ وأنا أشرح أحاديث من صحيح مسلم ، ونبهت إليه ؛ لأن الفرق بين الأعرابية وكلام المولدين في كلام بشار شغلني كثيرًا ؛ لأنه مفتاح

دراسة تطور أساليب العربية ، وهو جانب صعب وممتع ومسكوت عنه ، وكل الذي قيل فيه من التعميم المبهم .

وذكر أبو العباس قول امرئ القيس :

إذا ما الثريا في السماءِ تَعَرَّضَتْ تَعَرُّضَ أثناءِ الوِشَاحِ المُفَصَّلِ

وعقب عليه بقوله : « وقد أكثروا في الثريا ، فلم يأتوا بما يقارب هذا المعنى ، ولا بما يقارب سهولة هذه الألفاظ» . وقد ذكر عبد القاهر هذا البيت ، وبيّن سرّ تفوّقه . وَوَضْعُ كلام عبد القاهر البيّن الواضح بإزاء كلام أبي العباس المُبْهمم الغامض ، يبين لنا أهم ما يجب أن نبيّنه وهو تطور الفكرة البلاغية ، التي كانت رمزًا وإيماء عند سلف عبد القاهر ، ثم صارت علمًا يُنص عليه ويُشار إليه عند عبد القاهر ، ولا شك أن هذا العمل الجليل الذي كان يجب أن يكون شاغلا لأقلام العلماء مسكوت عنه سكوتًا مطبقًا . وراجع كلمة أبي العباس مرة ثانية ، وأن الناس لم يأتوا بما يقارب هذا المعنى ولابما يقارب سهولة هذه الألفاظ ، تجد هذه الكلمة ليس فيها وصفٌ للمعنى ، وليس فيها وصف للألفاظ ، وإنما بقي جلال المعنى في نفس قائل هذه الكلمة وهو أبو العباس ، وسهولةُ هذه الألفاظ أيضًا بَقِيَتْ وصفًا قائمًا في نفس أبي العباس . وتستطيع أن تقول إن هذا الكلام داخل في وصف عبد القاهر لكلام سلفه في باب ، ليس الرمز والإيماء ، وإنما في باب التنبيه إلى مكان الخبيئ ليبحث عنه فيُخرج . والذي في نفس أبي العباس هو في الشعر ، وعلينا أن نبحث في الشعر عن هذين الخبيئين : المعنى الذي لم يقارب ، وسهولة الألفاظ التي لم تقارب . فماذا فعل عبد القاهر ؟

عبد القاهر يشرح رموز المبرد

ذكر عبد القاهر هذا البيت وهو يتحدث عن أسباب تأثير التمثيل ، مع أن البيت ليس من التمثيل عند عبد القاهر ، ولكن السياق الذي ذكر البيت فيه هو سبب تأثير التشبيه بقسميه ، وهذا السبب هو ما يُبنى عليه التشبيه من التفصيل ؛ لأن الشاعر إذا فصل في التشبيه راجع ودقق في أحوال المشبه به ، وانتقى منها ما هو أشبه بالمشبه ، وهو في هذه المراجعة قد يُبعد بعض صفات المشبه به ؛ ليحقق الشبه ، وقد يعتبرها مجتمعة ؛ لأن التشبيه لا يتحقق إلا باجتماعها ، والبيت من هذا النوع الثاني ؛ لأن تشبيه الثريا بالوشاح المفصّل لا يتم إلا إذا اعتبرنا كل أحوال الخرز الذي في الوشاح . واجتماعها على الهيئة المخصوصة ، فلو فرضنا أن بعض خرز الوشاح لم يجتمع على هذه الهيئة لسقط التشبيه . ومعنى « تعرضت الثريا » مالت نحو المغيب . قال عبد القاهر : وقد اعتبر فيه ـ يعني الشاعر ـ هيئة التفصيل في الوشاح والشكل الذي يكون عليه الخرز المنظوم في الوشاح ، وصار اعتبار التفصيل أعجب تفصيل في التشبيه » انتهى كلام عبد القاهر . وراجع قوله : أعجب تفصيل في التشبيه ؛ لأنها توشك أن تكون معنى « أنه لم يقارب » وأن هذا التفصيل العجيب هو الخبيئ في كلام أبي العباس ، ثم راجع هذا مرة ثانية لتتعلم كيف قرأ اللاحق كلام السابق ، ولو اكتفى عبد القاهر بترديد عبارة أبي العباس ، وأن الناس لم يقاربوا هذا المعنى ، ولم يقاربوا سهولة لفظه ، لكان حالُ عبد القاهر كحالنا ، ولكان واحداً من حراس المعرفة ، وليس من بُناتها الذين علمهم سيدنا عليه السلام أن يقول كل واحد منهم : « وأنا اللبنة » كما قال عليه السلام . وحراس المعرفة كرام ، كرام بلا ريب ،

ولكن هناك فرقًا بين من يحاول أن يخطو إلى الأمام ولو بمقدار إصبع ، ومن هو راضٍ بأن يتحرك في محله من غير أن يتجاوز مقدار إصبع .

عناية المبرد بالتشبيه الممتد

اهتم أبو العباس بضرب من التشبيه هو كثير في الشعر وخصوصًا الشعر الجاهلي ، وكثير في الكتاب العزيز ، وكثير في كلام سيدنا رسول الله ﷺ ، وكثير أيضًا في كتابة الكتاب ، وقرأتُ صورًا منه في أدب ابن المقفع خصوصًا في أدبه الذي ترجمه من الفارسية ، وقرأتُ صورًا كثيرة منه على لسان بَيدَبا الفيلسوف الهندي في كتاب « كليلة ودمنة » هذا التشبيه هو التشبيه الذي يكون المشبه به كثير الأحوال والأحداث ، حتى إنه ليمثل أحيانًا قصة ، سواء كانت هذه القصة لحيوان أو لطائر أو لإنسان ، وهو تشبيه زاخر بالخصوبة والدلالات ؛ لأن كل حدث في المشبه به لابد أن يكون راجعًا لمعنى في المشبه ، يراد بهذا الحدث إظهار هذا المعنى ، من ذلك عناية أبي العباس بأبيات مجنون بنى عامر التي يقول فيها :

كَأَنَ القلبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى بَلْيلَى العامِرِيِّةِ أَوْ يُراحُ
قطاةٌ عَزَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ تُجاذِبُه وَقَدْ عَلِقَ الجناحُ

وقد عقب عليها أبو العباس بقوله : « وهذا غاية الاضطراب ، وقد قال الشعراء قبله وبعده فلم يبلغوا هذا المقدار » . وهذا هو الذي عقب به على بيت امرئ القيس في الثريا ، ولا يمكن أن يقول هذا الحكم إلا بعد أن يكون بين يديه أكثر ما قيل في هذا المعنى ، وأن يكون نظر فيه بعين الناقد البصير ،

ثم رأى أن ما قيل فيه لم يبلغ المقدار الذي بلغه مجنون بني عامر ، وهذا الكلام من أبي العباس الذي تعودنا على أن نقرأه وأن نكتبه ، ووراؤه أبواب من العلم مسكوت عنها ، وإن كان أبو العباس وغيره وضعوا مفاتيح هذه الأبواب فيها ، ولو ذهبنا نجمع ما يتاح لنا جمعه من التشبيهات التي دارت حول معنى واحد ، ودرسناها واجتهدنا في أن نضع أيدينا على صنعة كل شاعر ، وكيف اختلفت ضروب الصنعة . وتنوعت فنون الخيال ؟ وكيف نفث كل شاعر نفثة منه على هذا المعنى العام . أو على هذا المعنى المطروح في الطريق كما يقول الجاحظ ؟ وكيف صار هذا المعنى معناه . وكيف صار يُنْسَبُ إليه ؟ أقول لو فعلنا هذا لكان بين أيدينا من ضروب التشبيه ما هو جدير بكل عناية ، ولخرجنا به مما ألفناه إلى ضروب الصنعة التي هي العالَم الأفسح للدرس البلاغي .

ذكر أبو العباس مع هذا قول عروة بن حزام :

كأنّ قطاةً عُلِّقَتْ بجَناحِهَا على كَبِدِي من شدَّة الخَفَقَانِ

وقول غيره :

بل كَانَ قَلْبُكَ في جَنَاحَيْ طائر

وقول غيره :

عَينَيْ بنت ماء تُقلِّبُ طَرَفَها حَذَر الصقور

يعني أن قلبه يتقلب في وجلٍ وخوف كعين طائر الماء الذي يقلب طرفه هنا وهناك حذر الصقور التي تترصده . وأقربُ هذا إلى قول مجنون بني

عامر قول عروة بن حزام ؛ لأن كلا منهما يصف قلبه ، وفرقٌ بين قلب صار قطاة عزّها شركٌ فصارت في فم الموت ، وقلب عُلِّقَتْ عليه قطاة بجناحها فهو يخفق بخفقها . والشاهدان الآخران يصفان قلب الجبان ، وأن قلبه في جناحي طائر يخفق في هواء متسع ، وهذه خطوط عامة ، والدرس المفصل من وراء ذلك ، والذي أريده الآن هو الشاهد الذي ذكر أنه لم يُلحق .

وأول ما تراه في كلام مجنون بني عامر قوله : « قيل يغدى بليلي العامرية أو يراح » فأكد بذلك أن الخبر لم يثبت ، وأول دليل على هذا قوله : « قيل » يعني هو خبر فاعله مجهول ، فهو خبر طائر لم يثبت ، ولذلك اعتبر العلماء القول الذي يقال فيه : « وقيل كذا » قولا ضعيفًا ؛ لأن كلمة « قيل » صيغة تمريض . ولم يكتف الشاعر بهذا وإنما أضاف إليه تجهيلاً آخر بقوله : « يغدي أو يراح »فالقائل مجهول والزمان أيضًا مجهول ، وهذا تقديم جيد جدًّا لوصف قلبه بما وصفه به ، مع أن الخبر خبر طائر ، ولا أشك في أن أبا العباس قرأ ما بعد هذين البيتين ، وهو من تمام التشبيه وهو قوله :

لها فَرْخَانِ قد تُرِكَا بوكرٍ ... فعشّهما تُصَفّقُه الرياحُ

إذا سَمِعَا هُبُوبَ الرِيح نَصّا ... وقد أودى بها القدَرُ المتاحُ

فلا في الليلِ نَالَتْ ما تَرَجَّي ... ولا في الصبح كان لها براحُ

وهذا هو الذي يجعل المشبه به كأنه قصة ، ويجعله تشبيهًا ممتدًا ، ويجعل له ثراء يذهب أكثره بالاختصار والاكتفاء بالبيتين الأول والثاني ، وإن كان قوله : « عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح » فيه ما يكفي لأن يكون أفضل من التشبيهات التي ذكرها أبو العباس في اضطراب القلب ؛ لأن

القطاة هنا صارت في فم الموت وهي تجاذب الشرك من غير أمل في النجاة، ودل على افتقاد الأمل بقوله: «قد علق الجناح» وهذا يعني أن الشاعر استشعر الفقد والعدم لما قيل: يغدى بليلي أو يراح، وليس في الصور الأخرى شيء من هذا الإحساس، والشاعر لم يكتف بأن القطاة تجاذب الشرك رغبة في الحياة وفزعا من الموت فقط، وإنما أضاف إلى ذلك إحساس الأمومة الذي يطغى على الرغبة في الحياة، وأن هذه القطاة المخلوقة من الحنين والألفة تحب أن تعيش لفرخيها، وقد ذكرت عُشَّهما الذي هو في مَضْيعة تصفقه الرياح. وذكرت لهفة فرخيها لعودتها، وأنهما كما سمعا هبوب الرياح مدّا عنقيهما؛ لعل هذه الريح تكون قد حملت إليهما أمَّهما ومعها الطعام والماء والدفء إلى آخره. وكل هذا الذي ذكر في قصة الفرخين للدلالة على أن القطاة كانت تجاذب الشرك بكل ما لديها من قوة، مدفوعة بحب الحياة وكراهية الموت، وبأنبل مشاعر الأمومة حول فرخين في مضيعة، وهذا التجاذب الذي حشد له الشاعر كل هذه المشاعر يقابل في حال مجنون بني عامر محاولة التماسك والتجلد في مواجهة خبر طائر، لا يُعرف قائله ولا يعرف زمانه، وأن هذا الفراق وهذا التباعد هو الشرك الذي لم يُفلت قلبه حتى يُفضي به إلى العدم، وهذا غير كل الشواهد التي ذكرها أبو العباس، وأنا الآن أحاول أن أبين المقدار الذي حاول الشعراء قبله وبعده ولم يبلغوه، وأقطع بأن هذا المقدار عند أبي العباس أبعد مرمى مما أقول، وحسب المرء أن يقول ما عنده.

عناية المبرد بتشبيه يدي الناقة

ذكر أبو العباس من هذا اللون من التشبيه الذي يكون المشبه به فيه قصة وحكاية أبياتًا للشماخ وهو يصف سرعة الناقة ، ويُشبه ذراعيها في حال سرعتها بذراعي امرأة كريمة أُسِيئَ إليها ، فأخذت تتبرأ من هذه الإساءات ، وتُدلّ بمنصبها وشرف حسبها ، وأن حسبها وأدبها وخلقها كل ذلك ينفي عنها ما رُميت به ، والحقيقة أن هذه الأبيات التي ذكرها أبو العباس هي التي لفتتني إلى هذا اللون من التشبيه ؛ لأني أعلم ويعلم الشماخ ويعلم أبو العباس أن طرائق الإبانة عن سرعة الناقة كثيرة جدًّا ، ومهما بالغت هذه المرأة في حركة ذراعيها ، وانعكس ذلك على ذراعي الناقة ، فإنه لا يقدم لنا السرعة التي نراها في مثل قولهم :

مَرُوحٌ برجليها إذا هِيَ هَجَّرت ... ويَمْنَعُها من أنْ تَطيرَ زمامُها

ومثل قول امرئ القيس :

كأنّ الحصى مِنْ خَلْفها وأمَامِها ... إذا نَجَلَتْه رجلُها كفّ أعسرا

فلماذا ذكر ذراعي هذه المرأة ، التي وراءها هذه القصة ؟ هل أراد الشاعر بذكرها معنى غير هذا المعنى القريب ؟ وهذا ليس بعيدًا في الشعر ؛ فقد ذكروا أن الشاعر يذكر الشيء وهو يريد غيره . ولما قال امرؤ القيس :

ألا عِمْ صَباحًا أيُّها الطَّلَلُ البَالِي

قالوا : ذكر الطلل ، وهو يريد نفسه . وندع هذا الآن ونقرأ الأبيات . قال أبو العباس : قال الشماخ :

كـــأنّ ذراعَيْهَـــا ذِرَاع مُدلَّـــةٍ ... بُعيدَ السِّـــبابِ حَاوَلَـــتْ أن تَعَـــذّرا
من البِيضِ أعْطَافًا إذا اتّصَلَتْ دَعَـــتْ ... فِرَاسَ بن عمرو أو لَقيط بـــن يَعْمُـــرَا
بـــها شرَقٌ مـــن زَعْفَـــرَانٍ وعَنْـــبرٍ ... أطارَتْ من الحُســـن الـــردّاء المحبّـــرا
تقول وقد بـــلّ الـــدموعُ خِمَارَهـــا ... أبي عفّـــتي ومنصـــبي أن أُعيّـــرا
كـــأن بـــذفراها مَنَاديـــلُ فَارَقَـــتْ ... أكُفَّ رجـــالٍ يَعْصِـــرُون الصـــنوبرا
كأنّ ابنَ آوَى مُوثّق تَحْـــت غَرْضِـــهَا ... إذا هـــو لم يَكْلَـــمْ بنابَيـــه ظفّـــرا

قال أبو العباس : شبّه بِيَدَىْ مدلّة بجمال ومنصب ، قد سابّت وأقبلت تعتذر وتشير بيديها ، فوصف جمالها الذي به تُدل ، ومنصبها المتصل بمن ذكرته . وقوله : « أطارت من الحسن الرداء المحبرا» يقول : هي مُدِلّة بجمالها ، فلا تختمر فتستر شيئًا عن الناظر ؛ لأنها تبتهج بكل ما في وجهها ورأسها ، وقد كشف هذا المعنى عمر بن أبي ربيعة المخزومي حيث قال :

فلمـــا تَواقَفْنـــا وســـلّمتُ أشْـــرَقَتْ ... وجـــوهٌ زهاهـــا الحُســـن أن تَتَقَنَّعـــا
تَبـــالَهْنَ بالعرفـــانِ لمّـــا عَرَفْنَنِـــي ... وقُلن أمـــرؤٌ بـــاغٍ أكـــلّ فأوْضَـــعَا
وقـــدَّمْنَ أســـبابَ الهـــوى لمقتَّـــلٍ ... يقيس ذراعا كلمـــا قِسْـــنَ إصْـــبَعا

وقول أبي العباس : « قد كشف هذا المعنى عمر بن أبي ربيعة » كلمة جيدة ؛ لأنها تعني أن خواطر الشعر لها تاريخ ميلاد ، ثم قصة حياة تقلبت فيها بين الشعراء وتداولوها ، وأن الذي يقول : كشفها فلان ، لا يقولها إلا إذا كان الشعر كله تحت لسانه . وكلمة « زهاها الحسن » غير كلمة « أطارت من الحسن الرداء » وإن اتفق أصل المعنى ، والتي أطارت الرداء مستثارة بعد ماأصابها لسانٌ جَارَ عليها وأهْجَر،كما بيّنت الأبيات التي أسقطعها أبو العباس

كما سنبين ، وهذا غير حالة الوجوه التي زهاها الحسن ، وتوشك كلمة « زهاها الحسن » أن تكون من تحت كلمة « أشرقت وجوه » راجع « المفاعلة » في قوله : « تواقفنا » وأن كلا وقف من أجل الآخر ، ثم سلمت ، ثم أشرقت وجوه ، ثم تَبَالَهْن بالعرفان ، ثم قدّمن أسباب الهوى ، وكل هذا مُنْتِجٌ لا محالة « زهاها الحسن » . بخلاف تلك الغاضبة الكريمة المستثارة ، فلا يمكن مطلقًا أن تقول فيها : « زهاها الحسن » ، ولا يمكن أن تقول في صواحبات عمر : « أطرن من الحسن الرداء المحبرا » . وقد أغفل أبو العباس ثلاثة أبيات ذُكِرَتْ في الديوان بعد قول الشماخ : « كأن ذراعيها ذراع مدلة » وهي من تمام المعنى ، وقد بُنيت الأبيات بعدها عليها ، وهي :

كأن ذِرَاعَيْها ذِرَاع مُدلة ... بُعيد السِّباب حَاوَلَتْ أن تَعذَّرا

مُمَجّدْة الأعراقِ قَالَ ابنُ ضرّة ... عليها كلاما جارَ فيه وأهْجَرا

تقول لها جَارَاتُها إذ أتَيْنها ... يَحِقُّ لليلى أن تُعان وتُنْصَرا

يغرن لمبهاج أزَالَتْ حَليلَها ... سَحَابةَ صَيْفٍ ماؤُها غَيْرُ أكدرا

من البيض أعْطافًا إذا اتَّصلَتْ دَعَتْ ... فِراسَ بن عمرو أو لقيط بن يعمرا

إلى آخر الأبيات التي رواها أبو العباس . وفي الديوان شيء آخر غير حذف الأبيات الثلاثة ، وهو أن قوله : « كأن ذفراها مناديل فارقت » إلى آخره متأخر في رواية الديوان عن قوله : « كأن ابن آوى » وهو أشبه ؛ لأن قوله : « كأن ابن آوى » من أوصاف السرعة ، فإلحاقه بذكر « ذراعيها » أقرب ، إلا أن يقال شيء آخر سأعرض له . والأبيات التي أغفلها أبو العباس شرح للسباب ، وبيان أنه من ابن ضرة لها ، وأن جاراتها لما سمعن ذلك أتينها

ورأين أن من حقها أن تُنصر ، وأنهن يَغرن لها . وهذا كله هو السياق الذي تكلمت فيه وحركت ذراعيها ، وهذا هو عمود التشبيه ، وعمود هذه الصورة . والذي أفهمه من قوله : «أزاحت حليلها سحابة صيف ماؤها غير أكدرا» هو أنه باعدت صاحبها إبعادًا كريما في زمن قصير ؛ لأن سحابة الصيف أخف السحاب وأسرعه ، وأن ذلك لم يكدّر علاقتها به ، وهذا هو الملائم لقوله : «ممجدة الأعراق» وهذه شيمهم . و«بها شرق من زعفران» هو ما يبقى عالقًا من الطيب ، و«ابن آوى» القط المُوثَقُ تحت حزام الرحل ، وهذا تصوير وتخييل . ومعنى «إذا هو لم يكلم بنابيها» يعني أنه إذا لم يجرحها بنابيه أصابها بأظافره . و«ذفرا الناقة» أعلى قفاها خلف الأذن ، وعرفهما وسوادهما من دلائل نجابة الناقة . و«قارفت أكف رجال» لازمت . والصنوبر عصيره أسود .

وذكر أبو العباس شاهدا آخر لهذا ، هو قول الشاعر :

كأنّ ذَراعَيها ذِرَاع بذيّةٍ مُفَجَّعة لاقت خَلائلَ عن عُفرِ
سَمِعْنَ لها واسْتَفَرَغَتْ في حَديثها فلا شيء يَفْرِي باليَدَيْنِ كَمَا تَفْرِي

وعقب أبو العباس على هذا بقوله : «ولو قيل إن هذا من أبلغ ما قيل في هذا الوصف ، ما كان ذلك بعيدًا ، وصفها بأنها بذية قد فُجّعت مما أُسمعت ونيل منها ، ولقيت خلائلها بعد زمان وتلك الشكوى كامنة فيها ، وأصغين إليها يسمعن» انتهى كلام أبي العباس . والشاعر هنا لم يسترسل كما استرسل الشماخ الذي شُغِلَ بعراقة المرأة ، وأنها مِبْهَاجٌ ومن البيض أعطافًا إلى آخره . الشاعر هنا اهتم بالكلمات التي تثير هذه البذيئة وتفجّعها ، ولابد

أن يكون خَلائِلُها هنا أيضًا من عِرْقِهَا ، وأنهن سمعن لها وكنّ يَزْدنَها إثارة ، فلم يَفْرِ أحد باليدين كما تَفري . والفري : الشق . وهذه جملة جيدة جدًّا ، وجاءت في ختام الحديث عن هذه المرأة ، وهي نصّ في الموضوع ، ولذلك قال أبو العباس : «لو قيل إن هذا من أبلغ ما قيل في هذا الوصف ما كان ذلك بعيدًا» ، ومن حقنا أن نطرح ما يعِنّ لنا من أسئلة علي أبي العباس ؛ لأنه أحد شيوخ هذه اللغة الكبار ، وكان أهل زمانه وفيهم المُزَنيّ والجَرْميّ وابن السرّاج والجاحظ يرجعون إليه في مشكلاتهم ، وقد كتب «الكامل» في آخر أيامه .

وذكر الشيخ عضيمة أنه كتب «المقتضب» بعد ما اكتمل علمه ، واكتملت ثقافته ، ثم إنه كتب «الكامل» بعد «المقتضب» وأحال على «المقتضب» في بعض مسائل «الكامل» . هل من حقنا أن نسأل أبا العباس : لماذا اختار تشبيهين مختلفين أشد الاختلاف لمشبه واحد ؟ ذراع مُدِلّة من شأنها كذا وكذا ، وذراع بذيّة من شأنها كذا وكذا .. هل أراد أبو العباس أن يقول لنا إن المشبه وحده ليس هو الذي يستدعي المشبه به ، وإنما يَدْخُل معه في اختيار المشبه به سياق القصيدة ، ولو كان المشبه وحده هو المعوَّلُ عليه لصح أن نضع «ذراع بذية» مكان «ذراع مُدِلة» أو العكس .. ولو صحّ هذا لصحّ أن نضع تشبيه أعمال الذين كفروا برماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، الذي جاء في سورة «إبراهيم»، موضع تشبيه أعمالهم بسراب بقيعة يحَسَبْه الظمآن ماء ، الذي جاء في سورة «النور» وكل ذلك غير صحيح ، فما الذي أغرى الشماخ بيديّ المُدِلّة التي إذا انتسبت دَعْت فِرَاسَ بن عمرو ، وهو سيد في

تغلب ، أو لقيط بن يعمر ، وهو أيضًا سيد في تغلب ، وكلاهما صار جذر أرومة . أقول : يستوي أن يكون أبو العباس أراد أن يلفت إلى هذا أو لم يُرد ؛ لأن كلام العالم إذا أثار في نفوسنا خاطرًا ، صار من حقه علينا أن نعتبر هذا الخاطر من عطائه ولم لم يُرده ؛ لأنه لولا كلامه ما ثار في نفوسنا هذا الخاطر ، ومن الخير أن نتخفف في مسألة أراد المصنف أو لم يُرد ، وحسب فكرته أنها أثارت عندك فكرة . ولم أجد أصعب من بيان مناسبة التشبيه لسياق القصيدة أو سياق السورة ، ومع طوال محاولاتي في هذا فإني لم أُصب منه إلا القليل ، والإصابة غالبًا ما تكون على وجه المقاربة ، وليس على وجه القطع . وهذا من أفضل المسكوت عنه ؛ لصعوبة الخوض فيه ، ولو اقتحمه أهل العلم الصرحاء ، وابتعد غيرهم لانقاد هذا الباب العصيّ ؛ لأن خطأ أهل العلم الصادقين في البحث عن الصواب ربما أثار من هو أشبه بهم ، فدرس وراجع وأصاب .

وقد راجعت قصيدة الشماخ ، ورأيت أنه لا يجوز أن يقول : « كأن ذراعيها ذراع بذيّة » ، وبيان ذلك بإيجاز شديد : أن هذه القصيدة قالها الشماخ بعد ما علت به السنّ :

تقولُ ابْنَتِي أصْبَحْتَ شيخًا ومن أكن له لِدةً يُصبح من الشيب أوْجَرَا

واللدة : هو المولود في سنّه . ومعنى « يصبح أوجرا » أي : أوجل وأخوف وكأنه يترقب الموت . وفي القصيدة أنه غلبه الدّين فارتحل رحلة طويلة إلى معشر لا يرضى بغيرهم معشرا من الناس ، والرحلة إلى الكرام

من أعظم الثناء عليهم ، ومن أعظم ثناء الشاعر على نفسه ؛ لأنه لا يرحل إلى الكرام إلا كريم ، ولا يقبل أن يحط عنه ثقل دينه إلا كريم ، وقد وصف المشقة التي قطعتها ناقته في هذه الرحلة ، وأنها إذا قطعت قُفّا كُمَيْتًا بَدَا لها سَمَاوَةُ قُفٍّ ، والقف : ما غلظ من الأرض وعلا ولم يبلغ أن يكون جبلاً . والكميت : لون بين السواد والحمرة . وسماوة القف : أعلاه . يعني : ما إن تقطع أرضًا شاقة إلا بدا لها ما هو أشق منها . وقد مدح الناقة وذكر عراقة عرقها يقول : « كأن ذفراها مناديل فارقت أكف رجال» وسبق ذكره ، ومدحها أيضًا بقوله :

فَقَرَبْتُ مُبْراةً كأن ضُلُوعها ... من الماسِخيَّاتِ القسيَّ الموتَرا

وهذا من أفضل ما تُمدح به النوق ، وقد ذكر أبو العباس هذا البيت واستحسنه . والمُبراة بضم الميم : التي في أنفها البُرّة التي تقاد بها . وختم القصيدة بثناء على الناقة وأن كل بعير فداءٌ لها ، وذلك قوله :

فكل بَعِيرٍ أحْسَنَ الناسُ نَعْتَهُ ... وآخَرَ لم يُنْعَتْ فداءُ لضَمْزَرَا

وضمزر : اسم الناقة . وهذا البيت وحده يكفي في القول بأنه ما كان لناقة يُفدّيها بكل بعير أحسن الناس وصفه ، وكل بعير لم يُنْعَت ، أن يصف ذراعيها بذراع بذيئة ، هذا فضلاً عن التقارب في العراقة بين الناقة وبين المدلة الممجدّة الأعراف .

ذكرت أن أبا العباس قدّم قوله : « كأن ذفراها » على قوله : « كأن ابن آوى» ولو قلت إن هذا التقديم يعني ضمّ وصف الناقة بالعراقة إلى أوصاف المدلّة الممجّدة الأعراق ، لم يكن هذا بعيدًا عن وعي أبي العباس بخفايا

الشعر ، وأبو العباس قرأ القصيدة كلها وذكر منها أبياتًا ، ولا يمكن أن يخفى عليه استحالة أن يقول الشماخ : « كأن ذراعَيْها ذِرَاع بذيّة » بعد ما رافقته في الرحلة وهو وحده وليس له رفيق سواها ، وقد ودّع أمّ بيضاء أكرم توديع بقوله :

عَلَى أمِّ بَيضاءَ السلامُ مُضَاعفًا عديدَ الحَصَى ما بين حِمْصَ وشَيْزرا

وحين يستقيم لنا بيان العلاقة بين الصورة البيانية ، وخصوصًا الصورة الممتدة ، وبين القصيدة على النحو الذي حاولته والذي يتسع لأكثر مما قلناه ، نعود بعده إلى بيان العلاقة بين قوله تعالى : ﴿ **كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً** ﴾ (النور:٣٩) في سورة النور ، وقوله جل شأنه : ﴿ **كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ** ﴾ (إبراهيم:١٨) في سورة « إبراهيم » وبيان أنه لا يسد أحدهما مسد الآخر بيانًا مقنعًا . والعجيب أنه مع كثرة كتب التفسير ، وكثرة الدراسات القرآنية ، وكثرة دراسات تشبيهات القرآن وأمثال القرآن ، يبقى هذا الأمر الجليل مسكوتًا عنه . وسأحاول بيان ذلك بإيجاز كما حاولت بيان علاقة ذراعي المدلة بقصيدة الشماخ ، فإن أصبتُ فذلك فضل من الله أستعينه سبحانه على شكره ، وإن كانت الأخرى فعذري أنني أحاول أن أتكلم في المسكوت عنه ، ولعل ما أقوله يستحث من هو أقدر مني على بيانه .

سياق تشبيه أعمال الذين كفروا :

والذي لاحظته أن تشبيه أعمال الذين كفروا في سورة « إبراهيم » برماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، جاء بعد الإخبار بهلاك أصحاب الأعمال ، وأن الذين كفروا لما قالوا لرسلهم : ﴿ **لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ**

﴿ فِي مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (إبراهيم:١٣) ، ثم قال سبحانه : ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾ (إبراهيم:١٥-١٧) ثم جاء مثل أعمالهم ، وقال جل شأنه : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ (إبراهيم:١٨) وهذا معناه أن ذكر الأعمال جاء بعد هلاكهم ، ودخولهم النار ، وتجرّعهم العذاب ، وأنه يأتيهم الموت من كل مكان ، وهذا لا يناسبه أن تذكر مكانه صورة المثل الذي في «النور» ؛ لأن صاحب العمل هنا حيّ يركض وراء السراب وهو ظامئ، فلم يجد شيئًا، ووجد الله فوفاه الله حسابه، وكيف يقال : ﴿ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾ (النور:٣٩) بعد ما أخبر أنه سبحانه أهلكه ، وأنه من ورائه جهنم إلى آخر ما في سورة «إبراهيم» ؟ ولاحظ ما في سورة «إبراهيم» : رماد اشتدت به الريح ، ولم يقل اشتدت عليه ؛ لأن الذي في الآية أن الريح اقتلعته وذهبت به حيث تذهب ، ثم ذكر العاصف وأنه ليس وصفًا للريح في الآية ، وإنما هو وصفٌ لليوم ، وفرقٌ بين قولنا : ريح عاصفة ، وقولنا : يوم عاصف ، كل هذا تأكيد لهلاك هذه الأعمال بعد بيان هلاك أصحابها . والسياق مختلف في سورة «النور» لأن الذي قبل ذكر أعمال الذين كفروا ذكرُ الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، ثم ختمت الآية الحديث عن هؤلاء المكرّمين بقوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ (النور:٣٨) وكانت هذه الزيادة التي هي من فضله سبحانه داعية إلى ذكر أعمال الذين هم على الضد من ذلك ،

وهم الذين كفروا ، وقوبلت الزيادة بقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾ (النور:٣٩) وهذا ظاهر إن شاء الله . ومناسبة أخرى في سورة «النور» وهي جليلة جدًّا ، وأعني بها ذكر ظلمات البحر اللجّيّ الذي من فوقه موج من فوقه سحاب ، فانتقلت الآية من الصحراء القاحلة المتوقدة ، والتي يظهر فيها السراب إلى المقابل وهو بحر لجيّ إلى آخره ، وهذا الانتقال من مشبه به إلى مشبه به آخر ، والمشبه شيء واحد ، كثير في الشعر الجاهلي ، ترى الشاعر يشبه ناقته بالعَيْر الذي هو حمار الوحش ، ويذكر له قصة قد تطول ، ثم بعدما يشبع هذه القصة بالأحداث والأحوال يقول «أو» ثم يأتي بمشبه به آخر كالثور ، أو الظليم ، أو البقرة المسبوعة التي أكل السبع ولدها ، ويذكر لها قصة هي أيضًا زاخرة بالأحداث والأحوال ، وقد تنتهي القصيدة بهذا أو تذكر أبيات قليلة في المدح أو الهجاء أو ما شاء الشاعر ، وكأن الذي أراده الشاعر هو في هذه القصص ، وكأن أحوال المشبه به التي استغرقت أكثر القصيدة هي التي أضمر فيها الشاعر مراده . وقد جاء ذلك في الكتاب العزيز ، ومنه قوله تعالى في الموضوع الذي نحن فيه : ﴿ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ ﴾ (النور:٤٠) ، وقوله سبحانه في سورة البقرة في ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ (البقرة:١٦) ، فذكر سبحانه أولاً : ﴿ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ ﴾ (البقرة:١٧) إلى آخر الآية ، ثم قال جل شأنه : ﴿ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ ﴾ (البقرة:١٩) والأصل أن نتقن علم ذلك في الشعر الجاهلي ، الذي هو اللسان المبين ، الذي نزل به القرآن ، فإذا سلس لنا وانقاد انتقلنا إلى القرآن ، ولكن

المشكلة أن المشغولين بالقرآن أداروا ظهورهم إلى الشعر الجاهلي ، والمشغولين بالشعر أداروا ظهورهم إلى الدراسات القرآنية ، فأدار الزمان ظهره لهؤلاء وهؤلاء . والذي هو أهم أن كل هذا من المسكوت عنه .

ومن أسرار البيان الذي بُنيت عليه الطباع ، أنك ترى السرّ فيه غامضًا وبعيدًا ، فإذا هُديت إليه بهدى الله رأيته واضحًا جدًّا ، حتى إنك لتعجب كيف كان غامضًا ؟ وشاهد ذلك ما قلته في سورتي « إبراهيم » و« النور » وسأحاول بيان ما بعد كلمة « أو » في سورتي « البقرة » و« النور » وأشهد أن هذا شغلني كثيرًا ، ولم ينكشف لي شيء منه إلا بعد لأيٍ ولأواء ، وبعد ما تكشّف لي صرت أعجب من شدة ظهوره ، وكيف كان غائبًا عني وغائمًا عليّ هذا الزمن ؟ وإذا كانوا علمونا أنه لا حياء في العلم ، فمن حقنا أن نضيف إليه : ولا حياء في الجهل ، والمهم أن نحاول إزاحة الجهل ، ولعل الله سبحانه يتقبل منا ذلك ، ويجعلنا مع الذي رآه عليه السلام يتقلّب في الجنة بسبب غصن شوك أزاحه عن الطريق خشية أن يؤذي المسلمين ، ونرجوا الله سبحانه أن يجعل ما نحن فيه إزالة غصن جهلٍ ، وأغصان الجهل أكثر فتكًا بالمسلمين من أغصان الشوك . وخصوصًا إذا زحفت أغصان الجهل إلى الهضاب .

سياق تشبيه الذين اشتروا الضلالة بالهدى :

وأقول وبالله التوفيق مبتدئًا بتعاقب التشبيهين في سورة « البقرة » ، وأول ما ألاحظه في هذا هو دقة بناء المعنى ؛ فقد بدأ باسم الموصول ، وهو نكرة يعرّف بالصلة ، ولذلك اشترطوا أن تكون الصلة أمرًا معلومًا متعارفًا حتى يصح تعريفها للنكرة ، ومعنى هذا أن قصة الصلة هنا ، وهي ﴿ **ٱسْتَوْقَدَ نَارًا**

﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ ﴾ (البقرة:١٧) قصة متعالمة مشهورة، أو مفترض فيها ذلك ، وكلمة «استوقد نارًا» فيها معنيان : الأول : أنه ألح في طلب ما ينير له السبيل ؛ لأن الألف والسين والتاء ثلاثتها تدل على الطلب والإلحاح في الطلب ، مثل : استغفر ، واستجار ، واستعاذ إلى آخره . والمعنى الثاني : التنكير في كلمة «نارا» يعني أنه ألح في طلب نار ، أيّ نار مهما قلّت ، فكان أن أتاه الله سبحانه بالضياء ، والضياء كما يقول علماؤنا : فرط الإنارة . قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا ﴾ (يونس:٥) فلما أفاض الله عليه بهذا الضياء ، راغ منه ولم ينتفع به ، فذهب الله به . وكلمة ﴿ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ ﴾ (البقرة:١٧) غير قولنا : ذهب نورهم ، وأذهب الله نورهم ؛ لأن الذي في الآية أنه جل وتقدس هو الذي ذهب به ، وأنه لا يعود أبدًا ، وأنهم لا يرجعون ، وفي ذلك من الغضب ما فيه . هذه إشارات إلى شيء ما في البناء اللغوي ، ثم لاحظ أنهم كانوا جامدين ليست لهم أحداث كما في التشبيه الثاني ، وأن أصحاب التشبيه الثاني يضعون أصابعهم في آذانهم حذر الموت ، وأن البرق يكاد يخطف أبصارهم إلى آخره ، ولذلك كان جمودهم هذا مقدمة لختم التشبيه بقوله تعالى : ﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ (البقرة:١٨) . وما كان لهذه الآية أن يختم بها التشبيه الثاني ؛ لأنهم كانوا يسمعون ويبصرون ، ولهذا يمكن أن نقول إن هذين التشبيهين لفريقين ، وإن كلمة «مثلهم» التي ترجع إلى الذين اشتروا الضلالة بالهدى تعني فريقين ، وأن كلمة «صم بكم عمي» ترجع بهذا التشبيه إلى الذين ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، وأن قوله تعالى : ﴿ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ (البقرة:١٨) يرجع إلى قوله جل شأنه :

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (البقرة:٦) ولاحظ الشبه اللفظي بين «لا يؤمنون» و«لا يرجعون» وكأن اللام النافية الدالة على التأبيد ، كما يقول السُّهَيْلي والداخلة على الفعل المضارع ، الواقع خبرًا عن المسند إليه المتقدم على الخبر الفعلي ، والمسبوق بفاء ترتبه على ما قبله ، أقول : كل ذلك يشير إلى الربط بين هؤلاء والمثل الأول . ونبرأ إلى الله أن نقول في كلامه كلمة لا يرضاها ، ولولا الرغبة في فتح باب التدبر الذي أمرنا به ، لأمسك جلالُ الكتاب أَلْسِنَتَنَا وأقلامنا . وأول ما يلاحظ في التشبيه الثاني أنه قال : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ (البقرة:١٩) وقال علماؤنا : المراد كذوي صيّب ، وهذا واضح . والصيب الذي هو المطر من أكرم وأفضل ما يسوقه رب الناس إلى الناس . وإذا رجعنا إلى ما يقولونه في المطر الذي يأتيهم بعد سنين تتابعت جدبًا، لوجدنا أن القوم لم تسرهم مسرة كصوت هذا المطر ، ثم إن سيدنا صلوات الله وسلامه عليه شبّه ما بعثه الله به بالغيث أصاب أرضًا ، ثم يفاجئنا هذا الصيب بمفاجأة أخرجته من كل ما يسرّ ، وأدخلته في كل ما يسوء ، بحركة لغوية خاطفة ، وربما لا يتنبه إليها كثير من الناس ، وهي قوله تعالى : ﴿ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ وأريد بالحركة اللغوية دخول حرف الظرف الذي هو «في» على ضمير الصيب ، ولو حذفت هذا الضمير لكان المعنى أن الصيب الذي هو المطر كان في ظلمات ورعد وبرق ، وهذا هو الواقع ، ومجيء هذا الضمير جعل الظلمات والرعد والبرق في الصيب الذي هو المطر ، وكأن السماء لا تمطر ماء فحسب ، وإنما تمطر ماء وفي هذا الماء ظلمات ورعد وبرق ، ولذلك يكون هذا المشهد المخوف المرعب خرج من رحم هذه

الدلالة اللغوية الخاطفة . وإشارة سريعة أخرى لحال الفزع الذي أصابهم ، وهي قوله تعالى : ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ ﴾ (البقرة:١٩) بدل « أناملهم » وفيها أن الناس قد ذهب بعقولهم ما فاجأهم به الصيب ، فكانوا يحاولون وضع أصابعهم بتمامها في آذانهم . وكلمة ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ ﴾ (البقرة:٢٠) قريبة من قوله سبحانه في المثل الأول : ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ (البقرة:١٧) ولها دلالة مختلفة ؛ لأن أصحاب المثل الأول لم يمشوا في الإضاءة ، وقد مشى هؤلاء ، وكل هذا الذي أقوله في التحليل اللغوي سهل وميسور لمن تدرب على هذا ، ولكن الذي ليس بسهل هو تفسير هذه الأحوال عند المشبه ، وإذا كان التشبيه الأول فيه إشارات ترجع به إلى الذين كفروا ، فإننا نقول من غير روية إن هذا تشبيه الذين ذُكِرُوا بعدهم في قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة:٨) وليس عندي الآن في علاقة المثل بسلوكهم إلا أنهم قالوا آمنا وليسوا مؤمنين ، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ ... قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (البقرة:١١) ، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ ... قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ (البقـــرة:١٣) ، ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ ... ﴾ (البقرة:١٤)... أقول : ليس عندي الآن أكثر من القول بأن هذا الاضطراب الذي في مثل ذوي صيب ، هو صورة من هذا الاضطراب الذي عاشوه ، أما التفسير الجزئي للصواعق ، ووضع الأصابع في الآذان ، وخطف البرق للأبصار ، والمراد بذلك وغيره ، وكيف أصنفه على دقائق سلوكهم ، فليس عندي علم بذلك ، ومن قال : لا أدري ، فقد أجاب .

سياق تشبيه سورة النور :

أما الذي في سورة «النور» فهو طريق آخر ، لم أدرك منه إلا ما أقوله ، وهو أن الرجال الذين لم تلههم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وأن الله سبحانه يجزيهم أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، وأن هذا العطاء الأخير هو الذي اجتذب إلى السياق ذكر أعمال الذين كفروا ، وأنها كسراب إلى آخره .. أقول : هؤلاء الرجال الذين هذا شأنهم إنما أنتجهم دين الله وشرعه ونوره الذي وقفت الآيات عند بيانه ، وصوّرت هذا البيان تصويراً لم يتكرر في الكتاب العزيز ، وإذا كانت أعمال الذين كفروا التي هي كالسراب جاءت مقابلة للجزاء بالأحسن والزيادة من الفضل ، فإن الظلمات التي بعضها فوق بعض هي التي أنتجت أصحاب هذه الأعمال التي هي كالسراب ، وقابل آية النور بآية ظلمات البحر اللجّي ، تجد طريقة تركيب المعنى تكاد تقول لك : هذه مقابلات ، وإنك بين ضربين من ضروب الحياة والسلوك الإنساني ، ضرب يعيش في نور ما أنزله الله ، وضرب يعيش منقطعًا عن هذا النور ، وإذا كان مثل نوره سبحانه كمشكاة إلى آخره ، فإن مثل الظلمات المنقطعة عن نوره كمثل بحر لجيّ إلى آخره . ضع قوله تعالى : ﴿ **يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ** ﴾ (النور:٤٠) بإزاء قوله تعالى : ﴿ **كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ** ﴾ (النور:٣٥) تجد طريقة البناء واحدة وإن اختلف المعنى أشد الاختلاف ؛ هذا بيان لمثل نور الله ، وهذا بيان لمثل الظلمات التي يعيش فيها الإنسان بمعزل عن دين الله . وضع قوله تعالى تعالى : ﴿ **نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ** ﴾ (النور:٣٥) بإزاء قوله جل شأنه :

﴿ ظُلُمَٰتٌۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ ﴾ (النور:٤٠) تجد الرابط بين الصور . ثم ضع قوله تعالى : ﴿ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (النور:٣٥) بإزاء قوله : ﴿ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ (النور:٤٠) هذا الربط الواضح بين مثل الظلمات ومثل النور يعني أن الذي استضاء بنور الله ، عمل عملاً صالحًا ، جزاه الله بأحسن ما عمل وزاده من فضله ، وأن الذي انقطع عن نور الله ، فهو في هذه الظلمات التي يركب بعضها بعضًا ، وعمله ضائع منه فيها . وهذا ما عندي ، ومن يُعطِ ما عنده فقد وفّى .

وبقي أن أشير إلى واحدة من أكاذيب زماننا ، وهي أن الذاكرين لنوره وشرعه يسميهم زمن العجايب « ظلاميون » والمبتعدون عنه هم « المتنورون » وهذا لا يزعجني ؛ لأنه زبد ، وأخبرنا ربنا أن الزبد يذهب جفاء ، وأن ما ينفع الناس يمكث في الأرض ، وأنهم يريدون أن يطفئوا نور الله ، والله متم نوره ولو كرهوا .. وعجيبة جدًّا كلمة إرادة إطفاء نور الله ، وكأنها نزلت لما نحن فيه .

قلت هذا من المسكوت عنه وليس صريحًا في كلام أبي العباس ، وكل الذي كان من أبي العباس أنه ذكر ذراعي المدلة ، وذراعي البذيئة ، وأن هذا يقود قارئه إلى البحث عن مناسبة المدلة والبذيئة ، وأن هذا أفضى إلى نظائره في الكتاب العزيز ، وأن هذا النظير أفضى إلى ذكر تشبيه عقب تشبيهٍ مفصول بينهما بكلمة « أو » وقد يجد اللاحق في كلام السابق شيئًا غامضًا فيبينه ، أو إشارة خاطفة فيقف عندها ، أو أن يثير كلام السابق في نفس

اللاحق شيئًا فيعالجه ، سواء أراده السابق أو لم يرده . ومن طريف ذلك أن أبا العلاء سأل امرأ القيس وهو في الجحيم على لسان ابن القارح وقال له : إن الناس اختلفوا في قولك كذا ، فقال بعضهم : أراد كذا ، وقال بعضهم : أراد كذا ، وذكر له ثلاثة آراء ، لا يمكن أن يكون امرؤ القيس أرادها كلها ؛ لأنها مختلفة ، فقال له امرؤ القيس : كلهم على صواب . يعني بهذا الجواب أن مرادي ليس ملزمًا لمن يقرأ شعري ، وإنما له ما أردت ، وله ما لم أرد . وأضيف أن له أيضًا ما أثاره كلامه في نفسي من معنى ؛ لأنه لولا كلامه ما ثار في نَفْسِي هذا المعنى . وأرى أن هذا هو طريق نمو المعرفة ، ومنهج قراءة اللاحق للسابق ، وإلا لما صح للأخفش أن يقول : مات سيويه وهو أعلم بالكتاب مني ، وأنا الآن أعلم بالكتاب منه ، ولا يمكن أن تكون أعلم بالكتاب من مؤلفه إذا عزلت ما يثيره الكتاب في نفسك من أفكار .

تحدث أبوالعباس في وجوه من التشبيه سكت عنها البلاغيون ، وسكت عن أشياء تحدث فيها البلاغيون ، وأول ما يلفت فيما سكت عنه وتحدثوا فيه هو أن شواهد التشبيه الكثيرة التي ذكرها ، فيها كل أقسام التشبيه عند البلاغيين ؛ فيها المفرد ، والمركب ، والتمثيل ، وتشبيه الحسي بالحسي ، والعقلي بالحسي ، والقريب المبتذل ، والبعيد الغريب ، والصريح ، والضمني ، والمرسل ، والمؤكد إلى آخره .. ولكن أبا العباس كان منصرفًا عن هذه التقسيمات ، ولو أرادها وطلبها لوجدها ؛ لأنها قريبة من كل من يفهم الشعر .

وقد رأيته وهو يشرح معاني الشعر يشير إلى ضروب من المجاز ، كانت من أواخر ما كتب البلاغيون ، ورأيته يصل إليها بسهولة شديدة جدًّا .

ذكر قول امرئ القيس :

كـــأن أبانَـــا في أفـــانِينِ وَبْلِـــهِ كـــبيرُ أُنـــاسٍ في بِجَـــادٍ مُزَمَّـــلِ

وأشار إلى أنه يحتمل معنيين : أحدهما : أن يكون المراد أن المطر أحاط بالجبل إحاطة البجاد ، الذي هو الثياب المخطط ، بكبير أناس مُزَمّل ، أي : ملفوف بثيابه . ومعروف أن كلمة « مزمل » وصف لكلمة « كبير » التي هي خبر « كأن » ، والأصل أن يكون « مزمل » مرفوعًا تابعًا للموصوف في إعرابه ، ولكنه جاء بالجر لمجاورته كلمة « بجاد » هذا وجه . والوجه الثاني : أن يكون المراد أن الذي أحاط بالجبل خضرةُ النبات ، ويكون « الوبل » الذي هو المطر مرادًا به النبات ، وعبر عن النبات بالمطر ؛ لأنه سببه ، وقد جاء هذا في كلامهم ، واعتبروا أن الذي في السحاب هو أسنمة الإبل ، وذلك في قول الشاعر :

أسْـــنِمَةُ الآبـــالِ في سَـــحَابِه

والذي في السحاب ماء ، ولما كانت الأسنمة ، أعني سمنها عن الماء تكون ، عبر بالأسنمة عن الماء . وهذا وجه آخر من وجوه المجاز المرسل ، وعلاقة أخرى ؛ لأن التعبير بالماء عن النبات تعبير بالسبب عن المسبب ، والتعبير بالأسنمة عن الماء تعبير بالمسبب عن السبب . وذكر أبو العباس مع ذلك قوله تعالى : ﴿ **إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗا** ﴾ (يوسف:٣٦) أي : عنبا يؤول إلى الخمر . وهكذا رأينا أبا العباس يذكر المجاز المرسل ، وإن كان لم يسمّه ، ويذكر بعض علاقاته بسهولة شديدة ؛ لأن هذا المجاز وهذه العلاقات كل ذلك في الشعر وفي معنى الشعر ، وما دام القارئ قادرًا على إدراك معنى

الشعر ، فهو قادر على إخراج كل هذا ، وكل فنون البلاغة ساكنة في الشعر ، وكانت أقرب إلى ألسنة الباحثين في معاني الشعر ، وجرت ألسنتهم ببعضها قبل أن تجري بها ألسنة الباحثين عن القواعد .

أما الذي ذكره وسكتوا عنه ، فهو تقسيمه التشبيه من جهة المعنى إلى تشبيه فيه إفراط يعني مبالغة ، وتشبيه مقتصد ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد . والتشبيه المقتصد هو المقتصد في الإفراط ؛ حتى يكون هناك مكان للتشبيه القريب . والبعيد هو المشكل الذي يحتاج بيانه إلى شرح ، ووصفه بأنه أخشن الكلام من الخشونة . وأنا لا أريد أن أفضل طريقًا على طريق ؛ لأن تقسيم البلاغيين المؤسس على أركان التشبيه ، وتوزيع مباحثه على المشبه والمشبه به والوجه والأداة ، كل ذلك لا يُسْتَغْنَى عنه ، وإنما أريد أن أضع اليد على تقسيم آخر لرجل وصفه أبو الفتح بن جني بأنه جبل من جبال العلم ، وهؤلاء لا يجوز أن نترك في كلامهم شيئًا يمكن أن ينتفع به ، وأن نضم كلامهم إلى كلام غيرهم ؛ حتى يكون هناك تكامل في طرائق الأئمة .

ذكر أبو العباس من التشبيه المفرط قول بكر بن النطاح يمدح أبا دلف القاسم بن عيسى :

لـــه هِمَـــمٌ لا مُنْتَهَـــى لِكِبَارِهَـــا وهِّمتُه الصُّغْرى أجـــلُّ مـــن الـــدهر
له راحـــةٌ لـــو أنّ مِعْشَـــارَ جودِهـــا علي البرِّ صَارَ البَرُّ أنْدَى من البَحْـــرِ
ولو أن خَلْقَ اللهِ في مِسْـــكِ فـــارسٍ وبارزه كـــان الخلـــيَّ مـــن العُمْـــرِ

قوله « لا منتهى لكبارها » من الإفراط المبالغ فيه ، وليس فيه تشبيه ، وليس هناك إنسان له صفة لا منتهى لكبارها ؛ لأن الذي لا منتهى لجلال

صفاته هو الحق وحده . ولعل الشاعر نظر إلى هذا . وقوله : « وهمته الصغرى أجل من الدهر » تشبيه يُفَضَّل فيه المشبه على المشبه به ، كقولهم : أشجع من الأسد ، وأجود من البحر ، وأمضى من السيف . والإفراط هنا ظاهر ؛ لأن الدهر لا يغالب ؛ لأنه هو الذي أهلك عادًا وثمود والقرون الأول ، وهو الذي أشاب الصغير وأفنى الكبير . والتشبيه بالدهر نادر ، وإنما يشبه به ليس من ناحية جلاله ، وإنما يقال : هو كالدهر مبثوثًا حبائله ، يعني : لا ينجو منه أحد . وقوله : « له راحة » إلى آخره ، أصاب الشاعر في اختيار كلمة « راحة » بدل « يد » أو « كف » أو « يمين » ؛ لأن الكريم تعطي راحته بأريحية ، وكأنك تعطيه الذي أنت آخذه . ثم كدّر ذلك بالإفراط ، وذكر معشار جودها ، والبر لم يذكر بالجود ، وإنما الذي انطبع في قلوب الناس هو جود البحر . وبكر بن النطاح يعكس ما طبعت عليه النفوس . وانتقل من مبالغة إلى مبالغة ، وكأن هذا الولع بالمبالغة استفزه فنهض خياله يخلق هذه الصورة العجيبة التي في البيت الثالث . ولم أجد في كلام أبي العباس ما يدل على رأيه في هذا الشعر ، ولا ما يدل على رأيه في الإفراط ؛ لأنه لم يضع أصولاً للاستحسان ، ولكنه ذكر أبياتًا للنابغة الذبياني في رثاء حصن ابن حذيفة بن بدر الفزاري ، فيها إفراط لا يقل عن إفراط أبيات بكر ابن النطاح ، وقدم لها بكلام أستطيع أن أفهم منه رأيه في الإفراط .

قال أبو العباس : « ومن عجيب التشبيه في إفراط ، غير أنه خرج في كلام جيد ، وعني به رجل جليل ، فخرج من باب الاحتمال إلى باب الاستحسان ،

ثم جعل لجودة ألفاظه وحسن رصفه واستواء نظمه في غاية ما يستحسن ، قول النابغة الذبياني ينعي حصن بن حذيفة بن بدر بن عمرو الفزاري :

يَقُولُونَ حِصْنٌ ثم تَأْبَى نفُوسُهم وكيف بِحِصْنٍ والجِبالُ جُنوحُ
ولم تَلْفِظِ الموتَى القبورُ ولم تَزُلْ نجومُ السماءِ والأديمُ صحيحُ
فعمّا قليلٍ ثم جاء نَعِيُّه فظلّ نديُّ الحيِّ وهو ينوحُ

والكلام الذي قدّم به أبو العباس كلام جيد ، ويدلنا على أن الشاعر الجيد الصنعة يشغلنا بجودة صنعته عن شيء في الشعر ، لولا هذه الجودة لأنكرناه ، وأفهم من هذا أيضًا أن بكر بن النطاح لم يشغلنا بجودة الصنعة عن الإفراط المستثقل في أبياته ، ويكاد يكون قوله : « له همم لا منتهى لكبارها » خاليًا من أي صنعة ، حتى إنما لما عوّل على الخيال ، جاء بما لا يرتقي إلى درجة الإعجاب ، وكأن أبا العباس بكلامه في أبيات النابغة ، دل على رأيه في كلام ابن النطاح . وجيدة جدًّا كلمته التي قال فيها : « خرج من باب الاحتمال إلى باب الاستحسان » يعني : لم يعد الشعر يقاس بمقاييس الاحتمال ، الذي هو القرب من الواقع أو البعد عنه . أو الجنوح في الإفراط ؛ لأن الشاعر الجليل نقلك إلى عالم الشعر ، الذي هو عالم التجويد والتثقيف ، فصرت إلى الاستحسان ، والاستحسان وحده .

ومن الواجب أن نقف عند كلام أبي العباس ، الذي هو « جودة ألفاظه ، وحسن رصفه ، واستواء نظمه » وكلمة « جودة ألفاظه » كلمة عامة ، بينها أبو العباس بحسن الرصف واستواء النظم ، ثم إن حسن الرصف ، واستواء النظم ، يمكن الاستغناء بإحداهما عن الأخرى ، وكأن الكلام سينتهي عند استواء النظم ، الذي جعله عبد القاهر « عمود البلاغة » فما هو حسن النظم

في هذه الأبيات ؟ من السهل جدًّا أن نكرر كلام أبي العباس ، ومن الصعب جدًّا أن نبحث عن حقيقة معناه في الشعر . فأي شيء رآه في هذه الأبيات ، ووصفه باستواء النظم ؟ أقول : هذا سؤال لا يجوز الهروب منه ، وليس له جواب إلا جواب واحد ، وهو التفتيش في الشعر لاستخراجه منه وكأنه من الإشارة إلى مكان الخبيئ ليطلب ، وأول ما أجده في هذه الأبيات هو أن النابغة ابتعد عن الناس الذي أهالهم موت حصن ، ولم يجعل نفسه منهم ، وإنما كان شاعرًا يرى ويرصد ، وليس باكيًا ينوح مع من ناح . وهذا من شأنه أن يقرب إليه القارئ ؛ لأنه يرى الشاعر بعيدًا عن التهويل ، وإنما التهويل كان من غيره ، وليس هو إلا حاكيًا يحكي ما رأى وما سمع ، وهذا هو سر ضمير الغيبة ، وصيغة المضارع الدالة على أن هؤلاء القوم تكرر منهم هذا وتجدد،وكأنهم لا يزالون يقولون . كل ذلك في قوله « يقولون حِصْنٌ » ، وقوله : « ثم تأبى نفوسهم » ارتقت هذه الجملة بالشعر إلى المستوى الذي ينقلك من باب الاحتمال إلى باب الاستحسان ؛ لأن نفوس القوم لم تساعدهم على أن يتموا الجملة ، وأن يأتوا بالخبر الذي تتم به الفائدة ، وتمام الجملة « حصن هلك أو مات » وكلمة « ثم » في قوله : « ثم تأبى نفوسهم » فيها معنى أنهم استبعدوا ما وجدوا ، وأن رفض الألسنة أن تنطق ببقية الجملة ، بعد أن بدأتها عجيب وغريب ولا عهد لهم به ، وذكر شيخ الطاهر بن عاشور أن هذا المعنى من مبتكرات النابغة . وهو كما قال ، وإن كان إنكار النفوس لبعض ما تجد ، لهوله وبشاعته أمرًا قديمًا وجزءًا من الفطرة ، تراه عند العامة كما تراه عند الخاصة ، أما هذا التصوير الذي هو « يقولون حصن ثم تأبى نفوسهم » فهو من مبتكرات النابغة ، وكذلك ما بعده من قوله : « فكيف بحصن » إلى آخره . ومن المهم أن نحسن فهم

قولهم : « فكيف بحصن » وهذا الفاء غلب عليها أن تكون فاء استئناف ؛ لأن القوم وهم في هذه اللحظة التي أخرسهم فيها هول النبأ حتى تجمدت ألسنتهم وأبت نفوسهم أن تنطق بما يتم به الكلام ، كأنما غشيتهم حالة من التِّيه وافتقاد العقل ، ووهموا أن هذه الكائنات من حولهم لم تَنْهَدَّ ، وهذا يعني أن حصنًا لم يمت ؛ لأنه لو مات لقامت قيامتها ، لأنها لا تبقى مع الحزن كما يبقى الناس ، وإنما حزنها يعني محو ماهياتها ، فلا تبقي للجبال قائمة ، ولا يبقى الموتى في قبورهم ، ولا تبقي نجوم السماء ، ولا تبقى السماء ، وإنما كل ذلك يدخل باب العدم . حالة الوهم هذه ، وحالة الغشيان ، وذهاب الوعي الذي اعترى الجماعة الذين يقولون : « حصن ثم تأبى نفوسهم » كانت استراحة ، وهم عاشوها آملين ألا يكون ما حبس ألسنتهم صحيحًا . ويلاحظ أن الجمل الأربعة التي هي أساس هذه الأبيات ، وحوامل معناها وقعت كلها حالاً ، ونُسقت نسقًا واحدًا ، وأولها « والجبال جنوح » وهي جملة حالية ، عطف عليها « ولم تلفظ الموتى القبور » ثم عطف عليها « ولم تزل نجوم السماء » ثم عطف عليها « والأديم صحيح » ولو أبعدت هذه الجمل الحالية لم يبق في الأبيات شيء ، وكأن هذه الجمل الحالية هي معاقد المعاني عند أمثال النابغة ، ثم إن الجملة الأخيرة التي جاءت بعد ذهاب الغاشية ، وبعدما جاء نعيه ، ووعى من كان ذاهلاً هي جملة حالية أيضًا ، وهي قوله : « وهو ينوح » ، وهي خلاصة هذه الأبيات ، وكل هذا من حسن الرصف ، واستواء النظم ، الذي أراده أبو العباس مع ضرورة حضور شيء ، إذا غاب فقد غاب معه كل شيء ، وهو أن مراد علمائنا باستواء النظم أو حسن الرصف ، ومراد عبد القاهر بالنظم الذي يرجع إليه الإعجاز ، والذي لو فتشت كل ما بين السماء والأرض لتجد ما يفضل به كلام كلامًا ،

فلن تجد غيره ، إن كنت من ذوي الألباب ، أقول : المراد بالنظم الذي هذا شأنه عند عبد القاهر ، واستواء النظم وحسن الرصف الذي هو صنعة النابغة في رثاء الرجل الجليل ، الذي خرج بك من باب الاحتمال إلى الاستحسان ، كما يقول سيدنا أبو العباس هو : نظم هذا المعنى الذي بين يديك في هذه الألفاظ التي بين يديك ، فالنظم في أبيات « يقولون حصن » ليس هو رصف الكلمات ، وجعل بعضها بسبب من بعض ، وهي بعيدة عن هذا المعنى ، وإنما المراد جعل بعضها بسبب من بعض ؛ للإبانة عن هذا المعنى ، الذي هو « والجبال جنوح » و« لم تلفظ الموتى القبور » إلى آخره ، وإذا قلت إن آية الكرسي بلغ النظم فيها غاية الجودة ، فلا معنى لهذا إلا أن رصف الكلمات واستواء نظمها ، للإبانة عن ما أبانت عنه آية الكرسي ، بلغ غاية الجودة ، ولو قلت : حسن الرصف واستواء النظم في « قفا نبك » فلا معنى لهذا ألبتة إلا براعة امرئ القيس في إدارة ألفاظه على معانيه في هذه القصيدة ، والخطأ الفادح الذي أفسد كل شيء أننا جردنا حسن الرصف واستواء النظم من المعنى الذي تلبس به هذا الرصف وهذا النظم ، وليس هناك أي وصف للرصف والنظم إلا وهو متلبس ببيانٍ أبان عنه النظم والرصف ولابد من ملاحظة واعتبار شطري النظم ، الشطرِ الأول توخي معاني النحو بين معاني الألفاظ والشطر الثاني على وفق الأغراض والمقاصد ، فإذا شغلنا الشطر الأول عن الثاني كنا مع تحليل اللغة وكنا ذاهلين عن معاني القلوب والعقول التي أبان التحليل اللغوي عنها يعني كنا مع شطر البلاغة اللساني ذاهلين عن شطرها الروحي .

ذكر الشيخ الطاهر بن عاشور أنه نقل عن نسخة أبي جعفر « والجبال على حالها لم تهدم » ثم قال : ولعله مأخوذ من قولهم : جنحت الناقة

والجمل ، إذا بركت ؛ لأنها إذا بركت تميل على أحد شقيها ، فتعتمد على جوانحها ، وهي الضلوع مما يلي الصدر فهي جانح . وجُنوح : جمع جانح ، مثل قُعود ، جمع قاعد ، أي والجبال مستقرة في أماكنها . انتهى كلام الطاهر.

وحصن بن حذيفة الذي قال فيه النابغة هذه الأبيات ، التي كانت من مبتكراته ، كما يقول الطاهر ، ولم يَرْثِ النابغة أحدًا بأفضل منها ، هو الذي قال فيه زهيرٌ قصيدته الرائعة التي مطلعها :

صحا القلبُ عن سلمى وأقصر باطلُه

كان من خبره أن عمرو بن هند الطاغية القديم أراد أن يضمّه إليه ، وأن يُقطعه ناحية من ملكه ، يكون حصنٌ واليًا عليها ، وكان لحصن عند هذا الطاغية ثأرٌ ، فلما جاءته رسالة عمرو بن هند ، تَعْرِضُ عليه ملك ناحية من ملكه ، ردّ عليه حصنٌ ردًّا ملأ قلب زهير والنابغة حبًّا له ؛ لأنه قال له : «لم أكن يومًا ما أفْرَغَ لحربك كاليوم ، ولم أكن أكثر عدّة لقتالك كاليوم ، وليس لي حصن إلا السيوف والرماح ، وأنا لك بالعراء» فراغ عمرو بن هند من مواجهته ، وقد ذكر زهير في مديحه بعض عباراته التي رد بها على الطاغية . وكان زهيرٌ مولعًا بالأنوف الأنفة ، وكأن النابغة رأى لهذا الرجل ، الذي يمثل أَنَفة العربي العريق ، حقًّا عليه فجوّد هذه الأبيات . اللهم أرفع وأكرم من يَحْمِي أَنَفَهَ أُنُوفِ رجال وطنه وأجدع وأقطع دابر من يَحْرِضُ على ذُلَهم وبَثّ الخَوْفِ والرعب فيهم . اللهم آمين

قلت : إن أبا العباس ذكر هذه الأبيات وقدم لها بقوله : « ومن عجيب التشبيه في إفراط » والتشبيه فيها خفيّ جدًّا كما ترى ، ولا أراه فيها إلا في شيء واحد ، وهو أنه لما قال : « والجبال جنوح ، ولم تلفظ الموتى القبور ، إلى آخر ما ذكر » كان ذلك متضمنًا تشبيه الجبال والأرض والنجوم وأديم السماء بالحيّ العاقل الذي يعرف أقدار الرجال ، وأن قدر حصن ، ومكانة حصن ، وحماية حصن لقومه من طغيان جاهل أحمق نفذت إلى هذه الكائنات ، وأنها تبكيه كما يبكيه أهله وعشيرته .

أذكّر بأن أبا العباس بني كتابه ، الذي يقدم فيه لغتنا إلى أجيالنا ، على ما جُبلت النفس على حبّه من الحكم والأمثال والخطب الشريفة والرسائل البليغة والشعر المستحسن ، وأن هذا هو أيسر الطرق وأقربها إلى النفوس ، وأن تقديم اللغة إلى الجيل الجديد بالطريقة الخشنة والغامضة من أهم أسباب انصراف الجيل عن لغته ، والانصراف عن اللغة معناه انصراف عن القيم والثقافة والحضارة ، لأن اللغة وعاء ذلك كله ووعاء كل ما تحرص كل أمة عاقلة على أن تُسكنه في نفوس أجيالها . وتعجب حين تجد أن المولى جلّ وتقدّس إنما دعا خلقه إلى دار السلام من خلال ما جُبلت النفوس على حبه ، وهو الفطرة ، فكان الدين فطرةَ الله التي فطر الناس عليها ، واللغة بثراء ما تحمله من معان وقيم إنسانية وتاريخية هي الرباط الممسك بأبناء الأمة ، والحرص على اللغة بهذا المفهوم يعني الحرص على رباط لا يزول ولا يحول .

نوح الحمام :

ومن أبواب الشعر التي ذكرها أبو العباس ، ولها فضل تعلق بالطبع الإنساني ، ما ذكره في نوح الحمام وتطريبه وغنائه ، وهذا الباب الذي هو نوح الحمام وتطريبه وغناؤه له خصوصية لا توجد لغيره ، وهي فعله في النفس الإنسانية ، مع خلوه التام من أي دلالة معنوية ، وإنما هو صوتٌ محضٌ ، والعجيب أن الحمامة حين تُذكر في الشعر يكون لها مذاق متميز ، سواء كانت حمامة تغنّي ، أو حمامة عزها شركٌ ، أو حمامة علقت على كبِد شاعر أو ما شئت ، ويدهشك هذا السر الخفيّ بين القطا ولو كانت واحدة ترد شريعة الماء ، أو كانت جماعة ، وبين هذه النفس الإنسانية .. وقد انتقل أبو العباس من ذكر حنين الإبل إلى غناء الحمام ، وحنينُ الإبل له ارتباط بالشعر ، حتى إنهم قالوا : لا تدع العربُ الشعرَ ، حتى تدع الإبلُ الحنينَ . والإبل لا تدع الحنين أبدًا ؛ لأنه جزءٌ من فطرتها ، والشعر جزء من فطرة هذه العرب .

يقول أبو العباس : « والبعير يحنّ أشدّ الحنين إلى أُلَّافه إذا أُخذ من القطيع .. ثم ذكر قول الشاعر :

لا تَصْبِرُ الإبلُ الجلادُ تَفَرّقت بَعْدَ الجميعِ ، ويَصْبِرُ الإنسانُ

وقول الآخر :

وهل ريبةٌ في أن تحِنَّ نجيبةٌ إلى إلفها أو أن يَحِنَّ نجيبُ ؟

ثم يقول: وإذا رجعت الحنين كان ذلك أحسن صوت يهتاج له المفارقون، كما يهتاجون لنوح الحمام ولِلْتِياحِ البروق » انتهى كلامه .. والشعر الذي هو

ترجيع لهذه الثلاثة ، هوالشعر الخالص ، وهو من أكرم الشعر . وكان الواجب أن يكون بين يدي الجيل ديوان حنين الإبل مشروحًا ، وديوان غناء الحمام ، وديوان الصبوة التي يثيرها لمع البروق ، ولا أظن أن طالب علم يبعد عن يديه ديوان من هذه الثلاثة .

ذكر أبو العباس في غناء الحمام قول عوف بن محلّم :

إلا يا حَمامَ الأيْكِ إلفُكِ حَاضِرٌ وغُصْنُكَ ميّادٌ ففيم تَنُوحُ ؟
أَفِقْ ، لا تَنُحْ من غير شيءٍ فإنني بكيتُ زمانًا والفؤادُ صحيحُ
ولوعًا فشطّت غَربةً دارُ زينبٍ فها أنا أبكي والفؤادُ قريحُ

هذا شعر لا يقرؤه قارئ إلا أعاد قراءته ، ويكاد هذا الشعر يقول : احفظوني ، وفيه رُوحٌ إنسانية بالغة الرقي ، وهي بثّ المعنى الإنساني فيما تخاطبه ، ثم بعد هذا البث تقاربه ، ويزداد القرب بالنصح وبثّ الشكوى خلال هذا النصح ، والنفس التي تُسقى بهذا وهي خضراء لا تقبل أن يُدخلها شيطان في دائرة الحقد الأسود على بني الإنسان ، أو على بني الوطن ، حتى ترى المذابح تدور على تراب البلاد ، وأبناؤها يذبح بعضهم بعضًا .. هذا شيء وذلك شيء آخر . وراجع قوله : « إلفُكَ حاضرٌ وغصنك ميّادٌ ففيم تنوح » وقوله : « فشطّت غربةً دارُ زينب» يعني : ضاع الأمل وذهب الحلم . وأنا لا أفهم دار زينب بالدلالة الحرفية ؛ لأن الشعر ليس كذلك ، وإنما أفهم منها أنه شطّ ما كان يرتجي ، ولو كان تقدُّمَ وطنٍ عند الوطني الحُرّ الصادق ، فلو قلت شطَّتْ غربةً دارُ زينب ، وأنت تعني ذهب الأمل في تقدم الأوطان لمَّا وَلِيَ أمرها من ليس أهلا لولايته ، لو قلت ذلك لم تخطئ لأنك

إذا قلت «شطت غربة دار زينب» فقد فتحت آفاقًا من المعاني لا حدود لها ؛ لأن لكل منّا «زينب» ولو كانت زينب واحدة مُعيّنة لمات الشعر يوم ماتت.

وذكر أبو العباس أبياتًا في غناء الحمام لحُميد بن ثور ، منها :

تَغَنَّتْ على غُصْنٍ عشاءً فلم تَدَعْ ... لنائحةٍ في شَجْوِهَا مُتلوّمَا
إذا حرّكَتْه الريح أو مالَ ميلةً ... تغنّت عليه مائلا ومقوّمَا
عجبت لها أنَّى يكونُ غناؤها ... فصيحًا ولم تَفغَر بمنطقها فمَا ؟!
فلم أر مثلي شاقه صَوْتُ مِثْلِها ... ولا عربيًّا شَاقَهُ صَوْتُ أعْجَمَا

هذا غير الشعر الأول ؛ لأنه لم يجعل الحمام من الناس ، وإنما أبقاه وتكلم عن صوته .. الشاعر هناك لامه على النوح ، والإلف حاضرٌ والغصن ميّاد ، وهنا ذكر أن غناءها تهتاج له كل نائحة . وغناء الحمام ونوحُه بمعنى واحد ، والغناء على الغصن الميّاد معنى مشترك ؛ هناك يقول : «وغصنك ميّاد» وهنا يقول : «غنّت عليه مائلا ومقوّما» .. وقوله : «عجبتُ لها أنى يكون غناؤها إلى آخره» هو أهم ما في نوح الحمام ؛ لأنه وصفٌ خالصٌ لصوته ، وأنه فصيحٌ يُبِينُ عن نفسه أبْيَنَ إبانة ولم يفتح فمه ، وهذا موضع العجب ، ولذلك كانت أبيات حُميد مختلفة في جهة التناول عن أبيات عوف ابن محلّم ، وهذا البيت الذي عجب من فصاحتها وهي مطبقةٌ فمها ولم تحركه هو الذي فتح باب المعنى لقوله : «فلم أر مثلي شاقه صوت مثلها .. ولا عربيا شاقه صوت أعجما» وهذا من أحسن ما قيل في هذا الباب .

وذكر أبو العباس أبياتًا قالوا : إنها لأبي تمام منها :

ولم أفهم معانِيهَا ولكن ... ورَت كَبِدِي فَلَمْ أجْهَلْ شَجَاهَا

فكنـــتُ كـــأنني أعْمَـــى مُعنًـــى يحـــبّ الغانيـــات ومـــا رآهـــا

وهذا من التشبيه النادر ، وفيه بيان جيد ؛ لأنه يعني أن هـذا الصـوت الـذي لم يفهم معانيه ، أيقظ مـن مستكنّ نفسه ولعـا بشـيء كولـع المعنّـى بحـب الغانيات وما رآها . وكل هذا صريح في أن الصوت الذي تسـمعه الأذن ، ولم تعقل منه النفس شيئًا له هـذا الأثـر البـالغ في الـنفس الإنسـانية ، وهـذا كـلام الشعراء الذين هم صناع البيـان ، وهـم أعلـم بخوافيـه ، وهـذا صـريح في أن النغم والرنين في الشعر جزء من الشعر وله مشاركته التي لا تنكـر في تـأثير الشعر ، وكذلك في البيان كله ، وقد ذكر أبو العباس خبرًا عـن رجـل صـالح كان يسمع صوت الفارسية تنوح ، فيبكي وهو لا يفهم ما تقول ، وأن بعـض المحدثين سمع غناء بخراسان بالفارسية فلم يدر ما هو غير أنه شوّقه لشـجاه وحُسنه .

ولا شك أن هذا من المسكوت عنه في الدرس البلاغـي ؛ لأننـا تعلمنـا أن نستخرج دلالات الألفاظ والتراكيب ، وضربنا صفحًا عن أثر النغم والـرنين ، وأضيف إلى هذا شيئًا ، وهو أن التلاؤم الصوتي المحـض مـن غـير نظـر إلى أي دلالة معنوية تفهم منه ، عدّه العالم النحوي الذي جاء عقب أبـي العبـاس بلا مهلةٍ وهو علي بن عيسى الرماني الذي ولد قبل وفـاة أبـي العبـاس بتسـع سنين ، أقول : عدّ عليّ بن عيسى الرمانيّ التلاؤم الصـوتيّ وجهـا مـن وجـوه الإعجاز ، بمعنى أن من له حِسٌّ يدرك به جـلال الصـوت ، إذا سمـع القـرآن وهو لا يفهم شيئًا من العربيـة ، أدرك أن هـذا الـذي يسـمعه خـارقٌ للعـادة ، وقاطعٌ للأطماع ، وقاهرٌ للقوى والقُـدَر ، وهـذا معنـى أنـه وجـه مـن وجـوه الإعجاز .

وذكر عليّ بن عيسى أن التلاؤم الصوتي في الشعر يبلغ مداه في مثل قول الشاعر :

رمتني وسِترُ الله بيني وبينها عَشِيَّةَ آرامِ الكِناسِ رَميمُ
رميمُ التي قالت لجيرانِ بَيْتِها ضَمِنْتُ لكم ألا يزالُ يَهيمْ

وذكر أن المسافة التي بين هذا وبين أبعد الكلام عن التلاؤم كالذي تسمعه في قول الشاعر :

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفرُ وليس قربَ قبر حربٍ قبرُ

أبعد منها بين أبيات «رميم» وأيّ تلاؤم في أيّ آية في الكتاب العزيز . وهذا كلام جيد جدًّا ، وقد أشبعه الرافعيّ بيانًا كما أشبعه الدكتور محمد عبد الله دراز ، واعتبر هذا الجسم الصوتي أول ما يفاجئ الأذن بالإعجاز . وهذه الأبيات التي ذكرها عليّ بن عيسى مثلاً لبلوغ الشعر الغاية في التلاؤم الصوتي ، ذكرها أبو العباس ولكن ليس لهذا الغرض ، وإنما هي من المختار الحسن .

وذكر أبو العباس في سياق ذكر الحمام أن الذّكر يقال له : حمامة ، ويُفرق بينه وبين الأنثى باسم الإشارة ، فيقال : هذا حمامة . وكذلك يقال : دجاجة ، للذكر والأنثى ، ويفرق بينهما باسم الإشارة . ويقال : بقرة ، للذكر والأنثى . ويقال : بطة ، للذكر والأنثى . ويقال للحمامة : غنّت ، كما يقال : ناحت ؛ وذلك أن صوتها صوتٌ حسنٌ غير مفهوم ، فيُشبّه مرة بالغناء ، ومرة بالنياحة ، وهذا يعني أن «غنت الحمامة وناحت» من المجاز القائم على التشبيه . واسم صوتها الحقيقي هو (ساق حرّ) يعني حكاية الصوت . قال حُميد بن ثور :

وما هاج هــذا الشــوقَ إلا حمامــةٌ دعت ساق حُــرّ في تَرحــةٍ وترنّمــا

قال أبو العباس : «دعت ساق حر ، إنما حكى صوتها» .

شعر المحدثين :

كان أبو العباس شديد العناية بشعر المحدثين ، وكان يعقب على كل باب اختار فيه شعرًا من شعر القدماء ، باختيار شعر من شعر المحدثين ، وكان يرى أن الشعر يستجاد لجودته ، وليس للزمن الذي قيل فيه . قال في هذا : «فليس لقدم العهد يُفَضَّلُ القائل ، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ، ولكن يُعطى كلّ ما يستحق» . ثم إنه كان يصادق شعراء زمانه ويخالطهم ، وكان البحتري يرفع الكُلفة بينه وبين أبي العباس ويداعبه في شعره ، وقد مدحه ابن الرومي بقصيدة زادت على التسعين بيتًا ، وكانت في ديوان ابن الرومي المخطوط ، وقد نشرها الشيخ عُضيمة في مقدمة كتاب «المقتضب» وقال : من النادر أن يمدح أهل الزمان نحويًّا يعيش بينهم ، وكلنا يعلم هجاء البحتري لأبي العباس ثعلب ، وكذلك هجاء ابن الرومي ، وكان قد يبس الثرى بين ثعلب والمبرد .

وقد ذكرت وأكرر أن همّ أبي العباس هو أن ينقل الشعر بكل ما يحمله من حكم وآداب وقيم وتاريخ إلى الجيل الجديد ؛ لأن هذا ضروري في ترابط الجيل وبناء هويته الحضارية والتاريخية ، وأن هذا ليس خاصًّا بالمتخصصين ؛ لأن المعرفة بالقيم والتاريخ والحضارة معرفة واجبة لكل أبناء الأمة ، حتى ولو كانوا متخصصين في الرياضيات وعلوم الطب وعلوم الهندسة ؛ لأن هذا يرجع إلى بناء الإنسان بناء يتلاءم مع ماهية الأمة .. ولأبي

العباس كلمة جيدة في شعر المحدثين ، وأن هذا الشعر الحديث أقرب إلى لغتهم ، وهم أقدر على أن يتمثلوا به ، وأقدر على أن يقتبسوا منه في لغتهم وخطابهم وخطبهم ومكاتباتهم .. قال في مقدمة حديثه عن شعر المحدثين : « هذه أشعار اخترناها من أشعار المولدين ، حكيمة مستحسنة ، يحتاج إليها المتمثل ؛ لأنها أشكل بالدهر ، ويستعار من ألفاظها في المخاطبات والخطب والكتب» .

وعلينا أن نذكر أنه واحد من أشياخ النحو ، وأن كلام المولدين والمحدثين لا يحتج به عند النحاة ، ولكنه نظر إلى شعر المحدثين من زاوية التربية اللغوية والبيانية للجيل الجديد ، وقوله : « إن لغة المحدثين أشكل بالدهر » كلمة نفيسة ؛ لأن قوة شبه شعر الزمان بالزمان الذي قيل فيه تجعله أقرب إلى أن يُحفظ ويتمثل به ويتغنى به ، وهذا مطلوب في تقويم الطباع . واللغة الأشكل بالدهر أقرب إلى الألسنة . وأبو العباس في هذا يقول لنا : كل زمان له لغته ، وخاطبوا الجيل الجديد في علم أمته بلغتكم أنتم التي هي لغة زمانه ، والتراث ليس اللغة ، وإنما هو المضامين التي تعبر عنها هذه اللغة ، فانقلوه إلى أجيالكم بلغتكم ، وهذا أكثر محافظة عليه ؛ لأن لغتكم ستعين الجيل على استيعابه وفهمه وتمثله ، والذين يعتقدون أن التراث هو كتب التراث عليهم أن يراجعوا أنفسهم ؛ لأن التراث هو ما في هذه الكتب من العلم ، فاكتبوا هذه المضامين بلغتكم التي هي لغة زمانكم ، واذكروا أن الشيوخ الأوائل قالوا : كتاب سيبويه كتاب جيد ، ولكنه كُتب على شريطة زمانه ، ولهذا كتبه السيرافيّ وغير السيرافيّ ، ولم يقل أحد إن السيرافيّ فرّط في التراث ؛ لأنه نقل مضمون كتاب سيبويه إلى لغته ، التي هي لغة الجيل

الذي يعلّمه . ولارتباط اللغة بالزمان كتب فقهاؤنا الفقه في كل زمان بلغة هذا الزمان ، وهكذا النحاة وغيرهم . ولو كانت الكتب هي التراث لكان هؤلاء جميعًا مضيعين للتراث ، وهذا ظاهرٌ ، وأنهم رفضوا أن يجعلوا التراث العلمي حبيس كتب كُتبت على شريطة زمانها ، ورحم الله أبا العباس فقد كان يضع بقوله : « أشكل بالدهر » الهناء مواضع النُّقب ، وحركة الحديث والقديم حركة دائمة ودائبة ، فهناك حديث مع كل شروق شمس ، وهناك قديم مع كل غروب شمس ، وهذا نظام كونيّ لا يستطيع أحد أن يقاومه .

وهذه اللفتة المختصرة من أبي العباس في وصف الحديث ، وأنه أشكل بالدهر ويُستعار من ألفاظه في المخاطبات والخطب والكتب ، هذه اللفتة تنطوي على إشارة ، وهي ضرورة الدرس الجاد الذي يحدد الفرق بين القديم والحديث ، وعبارة أبي العباس خطوة في هذا الباب ، وليس هناك زمن محدد يمكن اعتباره قديمًا وزمن يمكن اعتباره حديثًا ؛ لأن الزمان غَيْرُ قارّ ، وحديث اليوم قديمُ الغد ، ودراسة الفروق تعني أنها دراسة مستمرة وترصد التغيير الذي يحدث في الكلام مع ثبوت ثوابت لا تتغير كالنظام الإعرابي ودلالة الألفاظ ، ومع ذلك نجد فرقًا بين لغة محمد عبده ومحمد الغزالي ، هذا فضلاً عن الذي بين العصر الجاهلي والعصر العباسي أو العصر الأندلسي إلى آخره ، وكلها أحدثت تغييرًا في الأساليب لم يُدرس بعدُ ، فضلاً عن أن يُواكَب . وعصور تطور الأساليب ليست هي عصور الأدب ، وإنما يوضع لها ضابط آخر ، الأصل فيه هو حدوث التغيير ، وقد سبق ذكر

كلمات لأبي العباس وبشار بن برد في الفرق بين لغة المولدين ولغة الأعراب الخلص ، وهذا كله من المسكوت عنه .

الأخذ والزيادة :

كان أبو العباس يهتم بالصورة التي يأخذها شاعر عن شاعر ، ثم يضيف إليها شيئًا .. ذكر أبيات أبي العتاهية في مدح هارون الرشيد والتي منها :

أمينَ الله أمنكُ خيرُ أمنٍ ... عليك من التُّقى فيه لباسُ
تَسُوسُ من السماء بكل بِرّ ... وأنت به تَسُوسُ كما تُسَاسُ
كأن الخلق رُكّب فيه رُوحٌ ... له جسدٌ وأنت عليه راسُ

وكلمة « أمين الله » كلمة جليلة ومنجية ، لو فطن إليها من يولّيه الله أمرًا ؛ لأن معناها أن الله جعله أمينًا على خلقه ، فلا يظلم ولا ينهب ولا يقتل ولا يخون ولا يفجر في اليمين ولا يَسْتَبِدّ ولا يَتَغَطْرسَ ، وإنما يحرص على أن يكون أمينًا كما جعله الله أمينًا . ومعنى « تسوس من السماء » أنك تقضي في الناس بقضاء الله ، وتسوسهم على وجه من السياسة الشرعية التي كلها برّ . ومعنى « وأنت تسوس كما تساس » أنك تطبق على نفسك ما تطالب الناس به ، فإذا كنت تسوس الناس نحو أمر بدأت بسياسة نفسك ، فأنت تساس كما تسوس ، لا فرق بينك وبين الناس .

والمهم البيت الثالث ، وهو صورة خيالية محضة ، تخيل الخلق كلّ الخلق رُكّب فيه كله روح واحدة ، لها جسد واحد ، ورأس هذا الجسد هو أمير المؤمنين ، فهو رأسهم الذي يدبر ويفكر .. وهذه الصورة راقت عليّ بن جَبلة ،

فأخذها في مديحه حُميد بن عبد الحميد .. قال أبو العباس : وزاد في الشرح والترتيب فقال :

يَرتُقُ ما يفتُق أعداؤُه ... وليس يأسُو فتقَه آسي

فالناسُ جسمٌ وإمام الهدى ... رأسٌ وأنت العين في الرأسِ

المعنى مختلف ؛ أبو العتاهية يتكلم في سياسة البر ، وعليّ بن جبلة يتكلم في الفتق والرتق والأعداء والحرب ، ويبدو أن عليّا كان في البيت الأول ذا طُربة ظهرت في هذه الغنائية والجناس الذي بين « يرتقُ ويفتق » وهو جناس لاحق ، كما يظهر في الجناس الذي لحق بهذا في الشطر الثاني والذي بين « يأسو وآسي » . ثم إنه اختصر صورة أبي العتاهية اختصاراً شديداً ، وبدل كلمة « كأن » التي جعلت الصورة الخيالية في حيز القبول ، هجم عليّ على هذا المعنى وقال « الناس جسم وإمام الهدى راس » ؛ وذلك ليضيف ما زاده هو ، وهو قوله « وأنت العين في الراس » وكان هذا ضروريًّا ؛ لأنه لا يقال « رأس » إلا لرئيس القوم ، فما كان لعليّ أن يقول لحُميد : إنك رأس الناس ، وإنما جعله عينًا في الرأس ، يحرس بها إمامُ الهدى ملكه .

ولا أجد نصحًا أنصح به طلاب علم البيان والباحثين في هذا الحقل الشريف من أساتذة ومَن هم دونهم ، لا أجد نصحًا لهم أولى من البحث الجاد عن هذا اللون من صنعة الشعر ، التي ينظر فيها الشاعر إلى صنعة شاعر ، فتروقه ويريد أن تكون في شعره ، فيجتهد في أن يضيف شيئًا أو أن يعدّل شيئًا أو أن يحذف شيئًا ، المهم أن يحدث هو صنعة في هذه الصنعة ، فيكون الدارس بين صنعتين لشاعرين ، اخترع أولهما صورة وأبدعها ، وجاء

الثاني وراقته هذه الصورة ، فضم مجهودًا من صنعته الشعرية إلى مجهود هذا الذي ابتكر ، حتى تنسب الصورة إليه بما فعله وصنعه وأضافه . ولاحظ أنك واجد قريبًا من هذا في المتشابه اللفظي في الكتاب العزيز ، وكيف كان للسياق أثره في إضافة لفظة أو حذف لفظة أو تقديم أو تأخير أو تعريف أو تنكير ، واستخراج ذلك من أغمض العلم وأمنعه وأمتعه أيضًا .

المبرد وأبو نواس :

كان أبو العباس شديد العناية بأبي الحسن بن هانئ ، وكان كثيرًا ما يضع شعره بإزاء شعر القدماء . وأبو الحسن جدير بهذه العناية ، ولو لم يكن صَدْر المحدثين ، فلا يجوز لأحد أن يبعده عن الطبقة التي هي في الصدر من أمثال البحتري ، وكأنه كان يعلم أنه شاعر يفرض على الناس أن يذكروه لشعره ولتفوق شعره لأنه كان يستفز الناس في كثير من شعره ، وكان عالمًا بالقراءات ، وقد قال الشافعي : هممت بأن آخذ القراءات عن الحسن ابن هانئ لولا ما عرف به . والشافعي عالم جليل محتاط في عبارته ، فقال : ما عرف به ، حقًّا كان هذا الذي عرف به أو باطلاً . وقد ذكر له أبو العباس كثيرًا من الشعر الذي وصف به الخمر ، ولم يتورع أبو العباس عن ذكر ما يستجاد مهما كان الرأي فيه ، وهذا جيد جدًّا ويروقني ، أحب الكلمة العالية ولو من فم شيطان ؛ لأن الذي يعنيني هو علوّ الكلمة وليس قائلها ، ولا يغضبك هذا مني ؛ فقد أنزل الله لنا في كتابه الذي يتعبدنا به ، ويخرجنا به من الظلمات إلى النور كلامًا كثيرًا ليس من فم الشيطان الأكبر الذي وسوس لأبينا آدم ، وإنما من أفواه أتباعه من شياطين الإنس الذين أساؤوا

الأدب مع أنبياء الله ، ووصفوهم بأنهم كذبة أو سحرة أو ما شئت ، ثم قولهم : نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، ووصفهم كلامه سبحانه بأنه أساطير إلى آخره . لم يحجب ربنا عنا شيئًا من ذلك ، وإنما جعله قرآنًا يُتَعَبَّد به ، ثم تُنْكِرُ عليّ أن أقرأ وأن أبحث عن الكلمة العالية ولو كانت من فم شيطان؟ راجع كلام أبي العباس وكيف كان يفتش في فم عمران بن حطان عن الكلمة العالية ؟ وأنا أكره عمران بن حطان ، وكأنه يعيش معي ، وكأنه قاتلُ أبي ؛ لأن عمران هذا مدح عبد الرحمن بن ملجم قاتل سيدنا عليّ كرم الله وجهه ، وأحسب أن تراب الأرض يكرهه ، وأن قبره الذي هو فيه كارهٌ له ، وكل هذا شيء والكلمة العالية التي أخرجها لسانه شيء آخر . وكأن الله سبحانه وتعالى يقول لنا : ابحثوا عن الخير في كل جهة ، حتى في جهات الشر ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لم يخلق إنسانًا هو شر محض ، ولم أجد في صدري حرجًا وأنا أقرأ قول ضابئ بن الحارث البرجمي الذي حبسه سيدنا عثمان ؛ لأن لسانه طال أعراض الناس ، فهمّ ضابئ بقتل عثمان قبل زمن الفتنة . وأنا أحب عثمان كحبّي لعلي ، وعثمان ذو النورين . فقال ضابئ :

هَمَمْتُ ولم أفْعَلْ ، وكِدْتُ وَلَيْتَني تَرَكْتُ على عثمانَ تَبْكِي حَلائلُه

وهذا من أوجز الكلام وأعلاه ، ويعبر عن أسوأ همّ وأدناه ، ولكن سلطان البيان على النفس يجعلك تحفظ « وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله » . ومن حلائله بنت سيدنا رسول الله ﷺ ، ولا أجد في ذلك حرجًا ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يثيبني أجزل الثواب وأنا أقرأ ﴿ **إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ** ﴾ (الفرقان:٤) و« أساطير الأولين اكتتبها » و﴿ **لَن**

﴿نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ (الإسراء:٩٠) و﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان:٧) إلى آخر ما علمنا ربنا به أن نقرأ كل ما يقال ، ونحن واثقون أن يقيننا في ديننا لا يتزعزع ، وكما قال الأول : « يقيني في الله يقيني » .. القرآن يقول لنا : لا تطردوا ولا تطاردوا مؤلفات من غاضبوكم ، وافتحوا أبواب المعرفة تصفّقها الرياح من هَنَّا وَهَنَّا ، وهذا شأن الأقوياء . ولا يطارد فكر من خالفوه إلا غبيٌّ ليس من أهل الفكر .

شيء آخر في شعر الحسن بن هانئ لا يبعد أن يكون خطر لأبي العباس ، وهو أن شعر أبي الحسن يظهر فيه الفرق الواضح بين الشعر القديم وشعر المحدثين ، وأنك بعد تحليله ستجد المنطقة التي تسرب إليها التغيير والتطوير ، وتسللت إليها حداثة الشعر، مع أن هذه المنطقة محصنة بحصون قوية ثابتة راسخة لا تهاون في شيء منها ألبتة ، وهي الإعراب الثابت ، ودلالة الكلمات الثابتة ، وطرائق الإبانة التي هي الطاقة التعبيرية للغة من تعريف وتنكير وحذف وذكر إلى آخره .. أبو الحسن شعره ملتزم بكل هذه الثوابت ، ثم ظهرت فيه الحداثة التي هي أشكل بالدهر كما قال أبو العباس .. أكتفي هنا بما اختاره أبو العباس من شعر أبي الحسن في وصف السفينة وذلك قوله :

بُنيت على قَدَرٍ ولاءَمَ بَيْنَهَا ... طَبَقَانِ من قِيرٍ ومن أَلْوَاحِ
فكأنَّها والماءُ يَنْطَحُ صَدْرَهَا ... والخيزرانةُ في يَدِ المَلَّاحِ
جَونٌ من العِقبانِ يَبتدرُ الدّجى ... يهوِي بصوتٍ واصطفاق جناحِ

تحليلي السريع لمثل هذا الشعر هو محاولة لبيان الحُسن الذي جعل أبا العباس يختاره .. والبيت الأول في هذه الأبيات الثلاثة ليس فيه صنعة ، ولم يشأ الشاعر أن يجعل فيه صنعة ؛ لأنه وصفٌ لصناعة السفينة وهي على البر ، وهذا ليس الذي قصد إليه الشاعر ، وإنما قصد إلى وصفها وهي في اليمّ ، والماء ينطح صدرها . وكلمة « بُنيت على قدَرٍ » تعني أنها بنيت على تقدير . والقِير بكسر القاف : هو القار ، وهو طلاء أسود تطلى به السفن ؛ حتى لا يدخلها الماء ، وتطلى به الإبل الجربى أيضًا . والسفينة ليست قارًا وألواحًا ؛ لأن القار لا يمسك الألواح بعضها ببعض ، وإنما هي ألواح ودُسُر كما جاء وصفها في سورة « القمر » ، وقد جاء هذا الوصف المجمل للسفينة في سورة « القمر » عقب آية ليس في القرآن أوسع منها في بيان الطوفان ، وهي قوله تعالى : ﴿ **فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ** ﴾ (القمر:١١،١٢) ، ثم جاء ﴿ **وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ** ﴾ (القمر:١٣) في وسط هذا الطوفان .. وكيف تحمل الألواح والدسر الآباء الأُول لكل من على الأرض ، من إنسان وحيوان وطير إلى آخره ؟ كيف يُحمل كل هذا على ألواح ودسر ؟ الجواب في قوله: ﴿ **تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا** ﴾ (القمر:١٤) وما دامت تجري بعين الله فلا أمان لها أكرم وأبر وأفضل من عين الله . أبو الحسن لم يكن منزعه أن يحدّث عن قوة السفينة أو ضعفها ، وإنما منزعه في أن يراها في اليمّ والماء ينطح صدرها ، وراجع هذا البيت

فكأنها والماء ينطح صدرها والخيزرانة في يد الملاح

تجد الجملتين الحاليتين تعترضان بين اسم « كأن » وخبرها ، ثم تجد أن المعنى كله معقود في هاتين الجملتين ؛ لأن البيت الثالث مشبه به ، يعني هو

بيان لهذا المعنى وتصوير له ونقل له من صورة السفينة ، والحال أن الماء ينطح صدرها ، والحال أيضًا أن الخيزرانة في يد الملاح ، إلى صورة الجون الذي ذكر الشاعر حاله في البيت الثالث . ثم تلاحظ أن حذو الكلام يُذكّرك بحذو كلام النابغة «فكيف بحصن والجبال جنوح ، ولم تلفظ الموتى القبور» ، ونسق كل معانيه في جمل حالية ، ثم إنه هنا زاد شيئًا وهو تقديم هاتين الجملتين ، وإقحامهما بين اسم «كأن» وخبرها ، وكان يمكن أن يقول «كأنها جون صفته كذا ، والماء ينطح صدرها» وإنما قدّم للإشعار بمزيد من العناية بما قدّمه ؛ لأن كلمة «ينطح» تعني غضبًا عارمًا من الموج ، وكأنه صار حيًّا حاقدًا عليها يريد هلاكها ، وكأن الملاح استشعر هذا الخطر من ناحية الموج فقام يمسك بالخيزرانة القوية اللينة ، والتي تتعلق بها قلاع السفينة ؛ ليضبط الملاح اتجاه السفينة ؛ لأن الريح توشك أن تذهب بها إلى حيث تشاء الريح ، وليس إلى حيث يشاء الملاح . وكلمة «الجون» تعني الأبيض والأسود ، والمراد هنا الأبيض ؛ لأن السفن ليست سوداء . وكلمة «يبتدر الدجى» كلمة جيدة ؛ لأنه قابل بها قوله في المشبه «ينطح صدرها» فقابل هذا الفعل النشط المتجدد الغضوب الذي تراه في كلمة «ينطح» بالابتدار الذي هو العمل الدؤوب النشط بدارًا أن يلحقه الليل . وكلمة «يهوي بصوت واصطفاق جناح» تم به التشبيه ، أما الصوت فهو صخب الموج وهو ينطح صدرها ، وأما اصطفاق الجناح فهو خفق الريح لقلاعها ، ومحاولة الملاح ضبط هذه القلاع ... هذا والله أعلم .